ا النزاع و التخاصم

فيما بين بنى امية و بنى هاشم

تأليف

أحمد بن على المقريزى الشافعى



تعليق

صالح الوردانى

النزاع والتخاصم

فيما بين بنى أمية وبنى هاشم

تأليف

أحمد بن على المقريزى الشافعى

المتوفى ٨٤٥ هـ

تقديم

محمد بحر العلوم

تعليق

صالح الوردانى

فهرس

النــزاع والتخاصــم

تقديم وتعريف

كتاب النِّزاع والتخاصم للمقريزى، هو الكتاب الذى نقدمه للقراء الكرام، نظرًا لأهميته التأريخية، وقيمته الدينية. فمؤلفه هو:

أحمد بن على بن عبدالقادر بن محمد بن إبراهيم بن تميم بن عبدالصمد بن أبى الحسن بن عبدالصمد بن تميم التقى بن العلاء بن المحيوى الحسينى العبيدى البلعلبكى الأصل، القاهرى المولد، أبو العباس، المعروف بالمقريزى نسبة لحارة فى بعلبك، تعرف بحارة المقارزة.

انتقلت عائلة المقريزى إلى القاهرة من بعلبك فى حياة أبيه على بن عبدالقادر، الذى أشغل بعض الوظائف المتعلقة بالقضاء، ثم بالكتابة فى ديوان الإنشاء بالعاصمة.

ولد أبو العباس المقريزى على الأرجح سنة ٧٦٦هـ، فقد ذكر السخاوى بأن: «مولده حسبما كان يخبر به، ويكتبه بخطه بعد الستين» وقال السخاوى: «قال شيخنا ابن حجر إنه رأى بخطه مايدل على تعيينه فى سنة ٧٦٦هـ، وذلك بالقاهرة[١]».

وإلى هذا ذهب كل من ابن العماد الحنبلى، والشوكانى[٢] حيث أيَّد السخاوى فى رأيه بأنَّه ولد عام ٧٦٦هـ.

---

(١) الضوء اللامع: ٢/٢١.

(٢) شذرات الذهب: ٧/٢٥٤، والبدر الطالع: ١/٢٩.

ويرى ابن تغرى بردى، وعلى مبارك: بأنَّه ولد بعد سنة ستين وسبعمائة بسنوات[٣].

وهناك من يذهب إلى أنَّه هو نفسه قد ذكر بأنَّ ولادته بعد سنة ستين وسبعمائة[٤]، ولقد كانت ولادته فى القاهرة، ونشأ بها، فقد تكفل تعليمه الابتدائى، وحفّظه القرآن جده لأُمه شمس الدين محمد بن عبدالرحمن بن على الحنفى، المعروف بسبط ابن الصائغ.

ثم انكب على الدرس والتحصيل بإشراف مجموعة من فضلاء عصره بحيث أظهر فى صغره مقدرة كافية لتكوين شخصيته، حتى كان موضع عناية أساتذة العصر.

وما أن وصل إلى عتبة العشرين من عمره، أو جاوزها بقليل حتى كانت له الأهلية التامة لأن يطوف على صفوة أعلام زمانه، ويلتقى بكبارهم ويجالس أئمتهم، وينتهل من نميرهم العلمى والأدبى.

ولقد ذكرت لنا بعض المصادر جملة ممن أخذ منهم تحصيله العلمى وكذلك عددًا ممن استجازهم، وفى مقدمة اولئك:

الشيخ برهان الدين إبراهيم بن أحمد بن عبدالواحد النسائى المتوفى عام ٨٠٠هـ، والحافظ نور الدين على بن أبى بكر بن سليمان الهيثمى الشافعى المتوفى ٨٠٧هـ. كما له اجازة من بهاء الدين أبى البقاء أحمد بن على السبكى وشهاب الدين أحمد بن حمدان بن أحمد الأذرعى الشافعى وغيرهما.

---

(٣) المنهل الصافى: ١/٣٩٤، والخطط التوفيقية: ٩/٦٩.

(٤) مقدمة النزاع والتخاصم طبعة النجف ١٣٦٨هـ.

وقال السخاوى: «وإن شيوخه بلغت ستمائة نفس[٥]» وتمكن المقريزى من تكوين شخصيته العلمية والأدبية، وبدأ نجمه يلمع فى أوساط القاهرة، كفاضل لا يستغنى عنه، وأديب استطاع أن يوجه إليه الأنظار، ومؤرخ واسع الاطلاع بحيث جلب إليه الانتباه.

ومن أجل طلب العلم رحل إلى مكة مرَّتين، وظل مقيمًا بها فى المرَّة الثانية حتى سنة ٨٣٩هـ، كما سافر إلى الشام، واتصل بعدد من الأعلام وأمضى بقية حياته بعد ذلك فى القاهرة منصرفًا إلى الدراسة العميقة والتأليف فى مختلف علوم عصره، وكان من المكثرين المجيدين[٦].

ولقد جمع إلى جانب معلوماته العلمية والتأريخية والأدبية، خبرة واسعة بالاصطرلاب والرمل، وأمثالها[٧].

واستمر مع الأيام يرتفع فيها صيته، ويشتهر ذكره، حتى أصبح علمًا من الأعلام وشاخصًا فى المؤرخين، معظمًا فى الدول، تضرب به الأمثال[٨].

لكنَّ المقريزى اتجه باهتمامه الكبير نحو التأريخ، فقد كان مغرًى به، معنيًا بتحقيقه والتأليف فيه، وتدوين نوادره، حتى وصفته المصادر بأنَّه: «عرف منه جزء كبيرًا معرفة تامة وحفظ منه كثيرًا عن ظهر قلب».

---

(٥) الضوء اللامع: ٢١-٢/٢٤
(٦) دراسة عن المقريزى فى مجلة الرسالة المصرية: ص١-ع١٩ ص١٦.
(٧) الضوء اللامع: ٢/٢٣.
(٨) شذرات الذهب: ٢/٢٥٤.

وقال ابن تغرى بردى - وهو من مؤرخى مصر المعروفين -: «وفى الجملة هو (المقريزى) أعظم من رأيناه فى علم التأريخ وضروبه، مع معرفتى لمن عاصره من علماء المؤرخين، والفرق بينهم ظاهر(٩)».

ورغم ما أكده العلماء، وكتَّاب التاريخ بأنَّ المقريزى من الطراز الأول فى تدوين التاريخ ووفرة الاطلاع فيه، فإنَّ المقريزى نفسه أكد لنا أيضًا بأنَّه ضرب فى باقى أنواع المعرفة قدحه وشارك فى أكثر من نوع واحد من أنواع المعرفة فلقد سجل لنا ثبت مؤلفاته أنَّه ترك للمكتبة الإسلامية العربية مؤلفًا فى علم الكلام، والعقائد والتوحيد، وآخر فى الحديث، وثالثًا فى السكة، والأوزان والمقاييس، كما كتب فى المعادن، والطب والموسيقى وغير ذلك من العلوم التى تتعلق بحياة المجتمع، بحيث بلغت مؤلفاته مايزيد على المائة مجلد.

وبعد هذا فهو شاعر مجيد وإن لم تسجل لنا المصادر نماذج كثيرة من شعره، غير أنَّ السخاوى نقل عن شيخه بأنَّ له نظمًا فائقًا، وشعرًا زائقًا، ومما قاله فى وصف دمياط:

سقى عهد دمياط وحيا من عهد   فقد زادنى ذكراه وجدًا على وجد
ولا زالت الأنواء تسقى سحابها   ديارًا حكت من حسنها جنة الخلد
فيا حسن هاتيك الديار وطيبها   فكم قد حوت حسنًا يجل عن العد
فلله أنهار تحف بروضها   لكالمرهف المصقول أو صفحة الخد
وبشنينها الريان يحكى متيَّمًا   تبدَّل من وصل الأحبة بالصد
فقام على رجليه فى الدمع غارقًا   يراعى نجوم الليل من وحشة الفقد

---

(٩) مجلة الرسالة: س١، ع١٩، ص١٧.

وظـل علـى الأقـدام تحسـب أنـه	لطول انتظار من حـبـيب على وعـد
ولا سيمـا تلـك النواعيـر إنَّهـا	تجـدد حـزن الواله المدنف الفـرد
اطارحهـا شـجـوى وصـارت كـأنما	تطـارح شـكواهـا بمثـل الذى أبدى
فقـد خلتهـا الأفـلاك فيهـا نجـومهـا	تدور بمحض النفع منهـا وبالسـعـد
وفـى البـرك الغـراء يا حسـن نـوفـر	حلا وغدا بالزهو يسطو على الورد
سـمـاء مـن البلـور فيهـا كواكـب	عجيبة صبغ اللون محكمة النضد
وفـى شـاطـئ النيـل المقـدَّس نـزهـة	تعيـد شـبـاب الشـيب فـى عـيـشـه
وتنشـى رياحًـا تطـرد الهـم والأسـى	الـرغـد
وفـى مـرج البحريـن جم عجائـب	وتنشـى ليالـى الوصل من سـيـبـهـا
كـأنَّ التقـاء النيـل بالبحـر إذ غـدا	عـنـدى
وقـد نـزلا للحـرب، واحتـدم اللقـا	تلوح وتبـدو من قـريب ومن بعـد
فظـلا كمـا باتـا ومـا برحـا كمـا همـا	مليكان ثارا فى الجحافل من جند
فكم قـد مضـى لى مـن أفـانين لـذة	ولا طعـن إلا بالمثـقـفـة الملد
وكم قـد نعمنـا فـى البسـاتين برهة	مـن جلـيـل الخطـب فـى أعـظـم
وفـى البـرزخ المأنـوس كم لـى خلـوة	الجـهـد
هنـاك تـرى عين البصيـرة مـا ترى	بشـاطـئـهـا العـذب الشـهـى لـذى
فـيـارب هيِّئ لى بفـضلك عـودة	

هذه هى المقطوعة الشعرية الوحيدة التى إشارت لها المصادر الأدبية وذكرها هو فى إحدى مؤلفاته[١١].

وإذا حاولنا أن ندرس جوانب أخرى من سماته الشخصية، غير الناحية العلمية

---

(١٠) الخطط المقريزية: ١/٣٦٢.

(١١) المنهل الصافى: ١/٣٩٩ هامش ١.

والأدبية، فقد أجمع معاصروه على أنَّه كان رجلاً فاضلاً دينًا، مجدًا، أمينًا فى عمله، على جانب عظيم من حسن الخلق، وكرم العهد، وكثرة التواضع، وعلوِّ الهمة لمن يقصده، والمحبة فى المذاكرة وحسن الصلات، ومزيد الطمأنينة، والملازمة لسنة، محمود السيرة فى مباشراته، وقد لخص ابن حجر هذا كله بقوله: «وكان حسن الصحبة حلو المحاضرة[١٢]».

وختمت بعض المصادر حديثها عنه بقولها: «قد انقطع فى داره ملازمًا للخلوة، والعبادة، قلَّ أن يتردد على أحد إلا لضرورة[١٣]».

وبالنسبة لمذهبه فتؤكد لنا المصادر بأنَّه انحدر من أب حنبلى وأنَّ جده لأبيه كان فقيهًا حنبليًا، وحجة فى الحديث، أما جده لأُمِّه - وهو ابن الصائغ - فقد كان فقيهًا حنفيًا.

ولكنَّ المقريزى تفقه فى شبابه على المذهب الحنفى تبعًا لجده لأُمه وحفظ مختصرًا فيه ثم لما ترعرع - وذلك بعد وفاة والده فى سنة ٧٨٦هـ وهو حينئذ قد جاوز العشرين تحوَّل شافعيًا، واستقر عليه أمره، ولكنَّه كان مائلاً إلى المذهب الظاهرى، ولذلك قال السخاوى: «وقال شيخنا - ويقصد ابن حجر - أنَّه أحب الحديث فواظب على ذلك، وحتى كان يتهم بمذهب ابن حزم، ولكنَّه كان لا يعرفه[١٤]».

ويقول ابن العماد: «وكان كثير التعصب على السادة الحنفية وغيرهم، لميله إلى --

---

(١٢) الضوء اللامع: ٢/٢٤.
(١٣) نفس المصدر المتقدم.
(١٤) الضوء اللامع: ٢/٢٢.

المذهب الظاهر[١٥]».

وقال ابن تغرى بردى فى هذا الصدد: «وتفقه على مذهب الحنفية وهو مذهب جده لأُمه، ثم تحول شافعيًا بعد مدة طويلة لسبب من الأسباب ذكره لى[١٦]».

أما المصادر الحديثة فيقول الدكتور محمد مصطفى زيادة: «وكفل تعليم الصبى جده لأُمه فأخذ بتنشئته على أصول المذهب الحنفى، ولما مات أبوه عام ٧٨٦هـ ترك المذهب وانتقل إلى الشافعية، ودرس الفقه دراسة واسعة، وأخذ بعدئذ يهاجم الحنفية فى عنف استجلب لوم معاصريه له[١٧]».

وأكاد أطمئن بأنَّ المقريزى قد انتهى إلى الشافعية لأمرين:

أولاً: لذهاب أغلب المؤرِّخين والباحثين إلى القول بكونه شافعى المذهب.

ثانيًا: لعدم تحامله على آل البيت عليهم السلام، وحبه لهم وإنَّ المتتبع لمؤلفاته يرى أنَّه لم يحاول المساس بهم بما يشين كرامتهم، وتكاد تكون هذه طبيعة عامة الشافعيين إلا ما شذ.

وبعد هذا كلِّه، فلقد ملك المقريزى كل المقومات العلمية والأدبية والاجتماعية التى أهَلته لأن ينال لدى المسؤولين مكانة كبيرة، وعناية خاصة، وكان من الطبيعى أن تحتضن دار الإنشاء فى القاهرة هذه الشخصية، ولما أبدى فيها الكفاءة والمقدرة الفائقة تنقل بعد ذلك فى عدة مناصب كبيرة فى الدولة، وكان فى خلالها مثال الموظف المستقيم

---

(١٥) شذرات الذهب: ٢/٢٥٥.

(١٦) المنهل الصافى: ١/٣٩٤.

(١٧) المؤرخون فى مصر: مجلة الثقافة س١، ع١٩، ص١٥.

يحب الخيـر ويعمل من أجله، ويؤدى واجبه كموظف يرى خير ما يجب عليه أن يقوم بما التزم به بكفاءة وقابلية.

ولقد بقى كاتبًا فى ديوان الإنشاء حتى سنة ٧٩٠هـ، ثم غدا بعد فترة قليلة نائبًا من نواب الحكم عند قاضى القضاة الشافعى، ثم إمامًا لجامع الحاكم، ومدرِّسًا للحديث بالمدرسة المؤيدية.

وفى سنة ٨٠١هـ اختاره السلطان برقوق - وكان حفيًا به مشجعًا إياه - لوظيفة محتسب القاهرة، والوجه البحرى - وهى من مناصب القضاء الهامة يومئذ - ثم بعد فترة من الزمن عزل عنها، وعاد لتوليتها بعدئذ فى أيام الدودار الكبير سودون، ابن اخت الظاهر.

وفى سنة ٨١١هـ انتقل المقريزى إلى دمشق ليتولى النظر على أوقاف القلانسية والمارستان السورى، والتدريس فى مدرستى الأشرفية، والاقبالية بمادة الحديث، ثم لم يلبث أن اختاره السلطان فرج بن برقوق لأن يكون قاضيًا بدمشق، ثم تنقَّل بعدها فى عدة مناصب، وطال به المكث فى دمشق، فقد كانت إقامته فيها ما يقارب عشر سنوات، يتولى فيها مختلف المناصب.

وأثَّر فى نفسه عامل السَّأم من الوظائف الحكومية، لذا فقد طلب من المسؤولين اعفاءه عن كل منصب، واستجابت الحكومة لطلبه. فترك دمشق وأعمالها، وعاد إلى القاهرة ليتفرَّغ إلى البحث والكتابة[١٨].

---

(١٨) راجع فى هذا الصدد المصادر التالية: الضوء اللامع: ٢/٢٢، والمنهل الصافى: ١/٣٩٩، ومصر الإسلامية: ٤٥، المؤرخون فى مصر مجلة الثقافة: س١. ع١٩. ص١٥.

وهنالك ظاهرة فى حياة المقريزى جديرة بالعناية والاهتمام، تلك هى تعصُّبه لوطنه وتكريس جهوده له، والتغنى فى محاسنه، وكل ذلك «ينم عن الحب العميق الذى كان يملأ جوانح المؤرخ نحو وطنه، ومسقط رأسه، وعما كان يحدوه من شغف الوفاء بتخليد آثار هذا الوطن وتدوين محاسنه وسعاداته، ورثاء مصائبه ومحنه(١٩)».

ولقد كرس جزءًا كبيرًا من مؤلفاته فى التحدث عن مصر، وقد طغت هذه الظاهرة عليه حتى عبَّر عنها نفسه فقال فى مقدمة خططه: «وكانت مصر مسقط رأسى، وملعب أترابى ومجمع ناسى، ومغنى عشيرتى وحامتى، وموطن خاصتى وعامتى، وجؤ جؤى الذى ربى جناحى فى وكره وعش مأربى، فلا تهوى الأنفس غير ذكره، لا زلت مذ شذوت العلم وآتانى ربى الفطانة والفهم، أرغب فى معرفة أخبارها، وأحب الإشراف على الإغتراب من آبارها، وأهوى مسألة الركبان عن سكان ديارها فقيَّدت بخطى فى الأعوام الكثيرة وجمعت من ذلك فوائد قلَّ ما يجمعها كتاب...الخ(٢٠)».

وهكذا كان، فلو ألقينا نظرة على ثبت مؤلفاته، رأينا أنَّه خص مصروأخبارها بقسط وافر من مجهوده، ضمنها تاريخ مصر، والدول التى تعاقبت عليها، وعلى سبيل المثال نذكر ما توصلنا إليه فى هذا الصدد:

١- المواعظ والإعتبار بذكر الخطط والآثار: ويعرف «بخطط المقريزى» ويقع الكتاب فى أربعة أجزاء، ويشتمل على تاريخ مصر بصورة مفصلة وقد طبع عدة طبعات.

٢- السلوك لمعرفة دول الملوك: وهو تاريخ مصر من سنة ٥٧٧ إلى سنة ٨٤٤هـ،

---

(١٩) مصر الإسلامية: ٤٦.

(٢٠) الخطط المقريزية: ٢-٣/١.

قال جرجى زيدان: «ذكر فيه أنَّه لما أكمل كتاب «عقد جواهر الأسفاط» وكتاب «اتعاظ الحنفا» وهما يشتملان على من ملك مصر من الأمراء والخلفاء، وما كان فى أيامهم من الحوادث منذ فتحت إلى أن زالت دولة الفاطميين، أراد أن يصل ذلك بذكر من ملك مصر بعدهم، من الأكراد، والأتراك، والجراكسة، غير مقيَّد فيه بالتراجم والوفيات، فألف هذا الكتاب، رتبه على السنين بذكر حوادث السنة، ثم يترجم من مات فيها من الأعيان ترجمة مختصرة، وإنما يطيل فى الحوادث[٢١]».

نشر هذا الكتاب الدكتور محمد مصطفى زيادة فى عدة أجزاء فى القاهرة.

٣- المقفى أو التاريخ الكبير: وصف فيه معيشة الأمراء والمشاهير الذين أقاموا بمصر رتَّبه على الحروف الأبجدية، وقدر أنه يستغرق ثمانين مجلدًا لم يظهر منه إلا ١٦ مجلدًا، منها ثلاثة مجلدات فى ليدن، ومجلد فى باريس كلها بخط المؤلف.

٤- درر العقود الفريدة فى تراجم الأعيان المفيدة: وهو معجم لتراجم الأعيان من معاصريه فى ثلاثة مجلدات، منه قطعة فى حرف الألف وأخرى فى حرف العين بخط المؤلف فى غوطا.

٥- اتعاظ الحنفا بأخبار الفاطميين الخلفا: وهو تاريخ الدولة الفاطمية، منه نسخة فى غوطا بخط المؤلف، عنى المستشرق بونز بنشرها سنة ١٩١١م فى غوتنجن، ولايبزك ١٩٠٩م ص ١٥١ وهذه النسخة طبعت بمطبعة دار الأيتام السورية بالقدس الشريف، كما نشرها الدكتور جمال الدين الشيال فى القاهرة.

---

(٢١) تاريخ آداب اللغة العربية: ٣/١٩١.

٦- البيان والإعراب عما فى أرض مصر من الأعراب: منها نسخة فى فينَّا، وباريس، ودار الكتب المصرية، وقد ترجمها وستنفلد إلى الألمانية، ونشرها فى غوتنجن سنة ١٨٤٧م فى ثلاثة أجزاء.

٧- عقد جواهر الأسفاط فى أخبار الفسطاط: قال جرجى زيدان لم نقف على خبره[٢٢].

٨- إغاثة الأُمَّة بكشف الغمة: وهو تاريخ المجاعات التى نزلت بمصر منذ أقدم العصور حتى سنة ٨٠٨هـ، وهو العام الذى وضع المؤلف فيه كتابه المذكور وقد نشره الأستاذان: زيادة والشيال بالقاهرة ١٩٤٠.

٩- تاريخ الأقباط، أو أخبار قبط مصر: قال سركيس: «وهذا الكتاب مستخرج من كتاب المواعظ والإعتبار «الخطط» وقد طبع مرَّتين:

الأُولى: باسم «دخول قبط مصر فى دين النصرانية» ومعه ترجمة لاتينية باعتناء الأستاذ ونزر فى سالباشى ١٨٢٨م، ص ٢٤ و ٢١٥.

والثانية: باسم «أخبار قبط مصر» باعتناء العلامة وستنفلد فى غوتا ١٨٤٥م ص ١٧٢ و ٧٠ وباعتناء الأستاذ هماكر فى امستردام سنة ١٨٢٤م[٢٣]».

هذه الكتب الرئيسية التى خصها المقريزى من سلسلة مؤلفاته بتاريخ مصر وبحث فيها جميع جوانبها العلمية والأدبية والاجتماعية، وهناك الكثير من البحوث التى تخص وطنه نراها منتشرة فى ثنايا مؤلفاته غير المخصوصة بمصر، كالبحث عن الدول -----

---

(٢٢) تاريخ آداب اللغة العربية: ٣/١٩٧.

(٢٣) معجم المطبوعات العربية: ٢/١٧٨٠.

المجاورة لمصر ومدى علاقتها بها وتاريخ النقود المصرية، وغير ذلك.

ولست مبالغًا إذا ادعيت: أنَّ المقريزى كان يود أن يزج حديث مصر فى كل كتاب يؤلفه تأكيدًا على حبه لها، وهذه الظاهرة طغت على أكثر من جانب من نتاجه العلمى أو الأدبى، أو التاريخى، أو أى جانب آخر من المواضيع التى كتبها.

ومن الجدير وقد بلغ بنا الحديث إلى مؤلفاته أن نستعرض ما كتب وألف، فقد ذكر السخاوى قائلاً: «قرأت بخطه أنَّ تصانيفه زادت على مائتى مجلدة كبارًا[٢٤]».

وأكدت بعض المصادر أنَّه كان مثابرًا على التأليف والبحث، ولم يمسكه عن المزيد منها غير مرضه الطويل، ثم وفاته.

قال جرجى زيدان: «ثم استقر فى القاهرة، وانقطع للعلم واشتغل بالتاريخ، وألف فيه مؤلفات مهمة، هى مرجع الناس فى حالة مصر السياسية والاجتماعية فضلاً عن التاريخ[٢٥]».

والحقيقة أنَّ المقريزى قد ولع بالجانب التاريخى، وأولى عناية خاصة فيه بحيث اضطر مترجموه أن يعترفوا بهذه الحقيقة، ولقد ذكر ابن تغرى بردى وهو خليفته فى هذا الاتجاه ما يؤكد على هذا الإدعاء.

يقول: «وفى الجملة هو أعظم من رأيناه فى علم التاريخ وضروبه مع معرفتى لمن

---

(٢٤) الضوء اللامع: ٢/٢٢.

(٢٥) تاريخ آداب اللغة العربية: ٣/١٩٠.

عاصره من علماء المؤرخين، والفرق بينهم ظاهر[٢٦]».

وكذلك السخاوى المؤرخ المصرى الذى ينازع المقريزى مكانته يعترف، فيقول: «وأولع بالتاريخ فجمع منه شيئًا كثيرًا، وصنَّف فيه كتبًا وكان لكثرة ولعه به يحفظ كثيرًا منه[٢٧]».

وكانت حصيلة هذه الوفرة العلمية المؤلفات التالية:

١- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار: ويعرف بخطط المقريزى.

٢- السلوك لمعرفة دول الملوك.

٣- المقفىَّ، أو التاريخ الكبير.

٤- درر العقود الفريدة فى تراجم الأعيان المفيدة.

٥- اتعاظ الحنفا بأخبار الفاطميين الخلفا.

٦- البيان والاعراب عما فى أرض مصر من الأعراب.

٧- عقد جواهر الأسفاط فى أخبار الفسطاط.

٨- إغاثة الأمة بكشف الغمة.

٩- تاريخ الأقباط، أو أخبار قبط مصر[٢٨].

١٠- الدرر المضية فى تاريخ الدولة الإسلامية: من مقتل عثمان إلى المستعصم آخر الخلفاء العباسيين، نسخة منه فى كمبريدج.

١١- إمتاع الأسماع بما للرسول من الأبناء والأموال والحفدة والمتاع: فى ستة مجلدات حدث به فى مكة والمدينة، منه نسخ فى غوطا وكوبرلى، ودار الكتب المصرية.

---

(٢٦) مجلة الثقافة: س١. ع١٩. ص١٧.

(٢٧) الضوء اللامع: ٢/٢٤.

(٢٨) تقدم الحديث عن هذه الكتب.

١٢- نبذة العقود فى أمور النقود (أو شذور العقود): يشتمل على تاريخ النقود العربية، تكلَّم عن النقود القديمة عند الفرس والروم واجزائها، ثم النقود الإسلامية، وتاريخها فى الجاهلية، وما كان ينقش عليها، ثم تكلم عن نقود مصر فى أيامه، منها نسخ فى برلين وليدن والاسكوريال، ونقلت إلى الايطالية، وطبعت فى روستك سنة ١٧٩٧ بهمة الأستاذ تيكس وترجمها دى ساسى إلى الفرنسية ونشرت فى باريس سنة ١٧٩٧، وقد طبعت فى مصر سنة ١٢٩٨هـ، كما طبعها الأب إنستاس فى ضمن كتاب النقود العربية وعلم النميات سنة ١٩٣٩م فى القاهرة وطبعت فى النجف الأشرف فى المطبعة الحيدرية قبل ٢٥ عامًا تقريبًا.

١٣- المكاييل والموازين الشرعية: رسالة تبحث فى المكاييل والموازين العربية بالنظر إلى الشرع والعرف العام، منها نسخة فى ليدن وأخرى فى دار الكتب المصرية فى ١٨ صفحة، وقد ترجمت إلى الإيطالية وطبعت فى روستك سنة ١٨٠٠م ص ٢٠ و ٨٠، باعتناء الأستاذ رنك.

١٤- مقالة لطيفة وتحفة سنية شريفة: فى حرص النفوس الفاضلة على بقاء الذكر والرسالة فى المتحف البريطانى.

١٥ - ضوء السارى فى معرفة خبر تميم الدارى: فى المتحف البريطانى.

١٦- النحل عبر النحل: فى النحل ومملكته، والعسل وأسمائه وما يتصل بذلك فى علم الحيوان والنبات، نسخة منه فى كمبريدج ونشرها جمال الدين الشيال سنة ١٩٤٦م بمصر.

١٧- الطريقة الغريبة فى أخبار حضرموت العجيبة (أو الطرفة الغريبة): رسالة فى إرشاد الحاج لطريق مكة. فى كمبريدج، وقد طبعت فى بون، مصورة ومشروحة سنة ١٨٦٦م، باعتناء الأستاذ سكوى عربى ولاتينى.

١٨- الإلمام بمن فى أرض الحبشة من ملوك الإسلام، كتاب صغير طبع فى بتافيا مع ترجمة فرنسية سنة ١٧٩٠م، وفى مصر سنة ١٨٩٥م مطبعة التأليف ص ٢٧، ومطبعة الموسوعات.

١٩- معرفة ما يجب لآل البيت الشريف من الحق على من عداهم منه نسخة فى فينًّا.

٢٠- الذهب المسبوك فى معرفة من حج من الملوك: ذكر فيه ٢٦ نفرًا، أولهم الرسول فالخلفاء الراشدون، ومن بعدهم إلى أيامه فى خمسة أجزاء، ومنه نسخة فى كمبريدج.

٢١- الإشارة والأسماء إلى حل لغز الماء: فى دار الكتب المصرية.

٢٢- إزالة التعب والعناء فى معرفة حال الغناء: فى باريس.

٢٣- ذكر ما ورد فى بنى أمية وبنى العباس من الأقوال: منه نسخة فى فينًّا.

٢٤- كتاب الخبر عن البشر: وهو كبير فى ستة أجزاء، ذكر فيه القبائل وأنساب الرسول (ص)، منه نسخ فى أيا صوفيا، وفى خزانة الفاتح وفى ستراسبورج، وقال جرجى زيدان: ونقلت عنه مجلة المشرق فصلاً فى تاريخ الكتابة العربية فى الإسلام (سنة ١٠ صفحة ٤٧٨)(٢٩).

٢٥- تراجم ملوك الغرب: فيه أخبار أبى حمو، ومن خلفه على تلمسان، منها نسخة فى ليدن، وفينًّا فى جملة مجموعة، فيها بضعة عشر مؤلفًا من مؤلفات المقريزى التى تقدم ذكرها.

٢٦- البيان المفيد فى الفرق بين التوحيد والتلحيد: وفى بعض المصادر ورد اسمه (تجريد التوحيد المفيد) نسخة منه فى دار الكتب المصرية، وورد ذكره فى فهرست مخطوطات مكتبة جسر بتى ليدن ٤٥١ برقم ١٤٩٦.

٢٧- جنى الأزهار من الروض المعطار: ذكره جرجى زيدان وقال: «منه نسخة فى دار الكتب المصرية فى ١١٦ صفحة ذكر فيها أنَّه خلاصة «الروض المعطار فى عجائب الأقطار» وفيه وصف أهم الأقاليم ومساحاتها، وفى صدر هذه النسخة سمى المؤلف شهاب الدين المقريزى فإذا صحت التسمية، كان المؤلف أحد أعقاب تقى الدين

---

(٢٩) تاريخ آداب اللغة العربية: ٣/١٩٤.

المقريزى، لأنَّ الروض المعطار الذى لخصه، تأليف أبى عبدالله الحميرى المتوفى سنة ٩٠٠هـ أى بعد تقى الدين المقريزى بنصف قرن[٣٠]».

٢٨- تاريخ الجراكسة: قال جرجى زيدان: لعله مقتطف من كتاب (واسطة السلوك فى دول الملوك)[٣١]».

٢٩- مجمع الفرائد ومنبع الفوائد: ويشمل على علمى العقل والنقل المحتوى على فنى الجد والهزل، بلغت مجلداته نحو المائة، هكذا نقل السخاوى[٣٢].

٣٠- ما شاهده وسمعه مالم ينقل فى كتاب.

٣١- المقاصد السنية فى معرفة الأجسام المعدنية.

٣٢- السير فى سؤال خاتمة الخير.

٣٣- الإشارة والكلام ببناء الكعبة بيت الله الحرام، ومختصره.

٣٤- الإخبار عن الإعذار.

٣٥- شارع النجاة: اشتمل على ما اختلف فيه البشر من أصول دياناتهم وفروعها مع بيان أدلتها، وتوجيه الحق فيها.

٣٦- النزاع والتخاصم فيما بين بنى أمية وبنى هاشم: وهو الكتاب الذى نحن نقدمه للقراء الكرام، وقد نصت عليه كل المصادر التى تترجم للمقريزى.

وتكاد تكون هذه أهم مؤلفات المقريزى حسبما ذكرتها مجموعة من المصادر القديمة منها والحديثة.

---

(٣٠) تاريخ آداب اللغة العربية: ٣/١٩٣.

(٣١) نفس المصدر: ٣/١٩٢.

(٣٢) انفرد بذكر هذا الكتاب والكتب التى تليه السخاوى فى الضوء اللامع: ٢٢-٢/٢٤، وقد اقتصر على ذكر الاسم فقط.

بقى أن نعرف مدى قابليته على الضبط والاتقان فى النقل التاريخى وباقى الجهات العلمية، وأول ما يطالعنا فى ذلك شمس الدين السخاوى - والذى يعتبر من أعلام عصره - فقد أنكر عليه فضل وضعه وابتكاره لأنفس مصدر فى تاريخ مصر الإسلامية، ذلك هو خططه، ونسب إليه النقل والتزييف، وحمل عليه بشدة، ورماه بالادعاء والضعف والسقط.

ولنقرأ له - فقرة وردت فى ترجمته يقول فيها: «وكان كثير الاستحضار للوقائع القديمة فى الجاهلية، وغيرها، وأما الوقائع الإسلامية، ومعرفة الرجال وأسمائهم والجرح والتعديل، والمراتب والسير وغير ذلك من أسرار التأريخ ومحاسنه فغير ماهر فيه(٣٣)».

ويقول فى مناسبة أُخرى، وفى ضمن ترجمته له أيضًا: «وكان حسن المذاكرة بالتأريخ، ولكنَّه قليل المعرفة بالمتقدمين، ولذلك كثر فيهم وقوع التحريف والسقط، وكانت له معرفة قليلة بالفقه والحديث والنحو واطلاع على أقوال السلف، وإلمام بمذاهب أهل الكتاب، حتى كان يتردد إليه أفاضلهم للإستفادة منه، مع حسن الخلق، وكرم العهد، وكثرة التواضع وعلو الهمة لمن يقصده، كل ذلك مع تبجيل الأكابر له، إما مداراة له خوفًا من قلمه أو لحسن مذاكراته(٣٤)».

ولعل القارىء قد لمس محاولة السخاوى فى الحط من شخصية المقريزى من خلال هاتين الفقرتين.

ولكنَّ السخاوى يذهب إلى أبعد من هذا الحد فى الانتقاص فيدعى فى موضع

---

(٣٣) الضوء اللامع: ٢/٢٣.
(٣٤) الضوء اللامع: ٢/٢٢.

آخر من مؤلفاته بأنَّ المقريزى: «أقام ببلدة عاكفًا على الاشتغال بالتاريخ، حتى اشتهر ذكره، وبعد فيه صيته، وصارت له جملة تصانيف كالخطط للقاهرة وهو مفيد، لكونه ظفر بمسودة الأوحدى فأخذها وزادها زوائد غير طائلة[٣٥]».

وإذا كان السخاوى قد رمى زميله المقريزى بعدم الضبط فى الفقرتين المتقدمتين، ففى هذه المرة رماه بالإختلاس، وهذه تهمة كبيرة جدًا بالنسبة لمؤرخ حاز المكانة الأولى فى آثاره وتصانيفه.

وذهب السخاوى يؤكد هذا المعنى فى أكثر من موضع، تارة بالتلويح، وأخرى بالصراحة، كل ذلك ليحكم الطعن الذى وجهه إلى زميله المؤرخ الذى نال اهتمام الملوك والزعماء وأهل العلم والأدب فى حينه.

ولكن الذى يرجع إلى كتب السخاوى، ويقرأ ما يكتبه من التراجم يستطيع أن يخرج بنتيجة واضحة فى أسلوب ونفسية السخاوى تلك هى مهاجمته لأكابر عصره، وانتقاصه لأقدارهم، ونقده لجهودهم ففى (الضوء اللامع) ما يكفى للتدليل على هذا الادعاء، ولقد أصاب ابن خلدون، والبقاعى، وأبا المحاسن ابن تغرى بردى ما أصاب المقريزى من لوم وتقريع من السخاوى ولقد ألف جلال الدين السيوطى مقامة شديدة كتبها للرد على السخاوى، أسماها (الكاوى على تاريخ السخاوى) قال فيها: «ماترون فى رجل ألف تاريخًا جمع منه أكابر واعيانًا، ونصب لأكل لحومهم خوانًا ملأه بذكر المساوي، وثلب الأعراض، وفوَّق فيه السخاوى سهامًا على قدر أغراضه[٣٦]».

---

(٣٥) التبر المسبوك فى ذيل السلوك: ٢١ ط بولاق.

(٣٦) مصر إسلامية: ٥٧ عن مخطوطة المقامة، وجاء فى هامش ٣ من الكتاب والصفحة: أنَّ كتاب (الكاوى على تاريخ السخاوى) توجد منه نسخة مخطوطة بدار الكتب رقم (١٥١٠ - أدب).

ولقد أصبح موقف السخاوى والمقريزى موضع دراسة واهتمام كثير من الباحثين وخاصة لدى المستشرقين، فمنهم من وقف إلى جانب السخاوى وآخر أكد على نظافة المقريزى من هذه التهمة.

واستمر المقريزى فى نشاطه العلمى والأدبى، مثابرًا على التأليف والبحث ولم يمسكه عن المزيد منها غير مرضه الطويل، ثم وفاته عام ٨٤٥هـ بالقاهرة، وذهب السيوطى إلى أنَّ وفاته كانت عام ٨٤٠هـ ودفن فى مقبرة الصوفية، خارج باب النصر من القاهرة.

ولم تشر المصادر إلى ذرية له سوى ما ذكرت بعض الروايات من أنَّ له بنتًا ماتت فى حياته بالطاعون الذى اجتاح القاهرة عام ٨٠٦هـ.

❖ ❖ ❖

وبعد استعراضنا لحياة المؤلف بصورة عاجلة، ننتقل إلى الكتاب الذى نحن بصدد تقديمه للقراء الكرام، وهو:

﴿النزاع والتخاصم فيما بين بنى أمية وبنى هاشم﴾

هذا هو اسم الكتاب، وهو يشرح بوضوح ما يضم بين دفتيه، وأجمعت المصادر المترجمة للمقريزى أنَّه من مؤلفاته.

فالنزاع بين بنى هاشم وبنى أمية يمتد جذوره إلى هاشم بن عبد مناف،

وابن أخيه أمية بن عبد شمس، فيستعرض المقريزى جملة من الأسباب التى أحكمت المنافرة بين هاشم وأمية، وانتقلت بعدهما إلى ولديهما عبدالمطلب بن هاشم وحرب بن أمية وتمادت العداوة بين البيتين حتى انتقلت من رجل إلى رجل، وانتهت إلى رسول الله (ص)، وكان موقف أبى سفيان معلومًا لكل من اطلع على خطوط السيرة النبوية، وتاريخ تلك الحقبة من السنين.

ثم انتقل هذا الموقف إلى الإمام على عليه السلام، ومعاوية ابن أبى سفيان، وبعده إلى الحسين بن على «ع» ويزيد بن معاوية، وهكذا تسلسل من بيت إلى بيت، ومن رجل إلى رجل، ولقد أحكم هذا النزاع وتوثقت أسبابه على مر الأيام، وهول الأحداث، وتجسد على مسرح التاريخ بشكل تتقزَّز منه النفوس من ظلم الأمويين لهذا البيت الطاهر الذى فضَّله الله بالإمامة وشرَّفه بالنبوَّة، وخصه بكل مكرمة.

وحاول المقريزى أن يستعرض علاقة هاذين البيتين ويسجل الأسباب التى دعت إلى المنافرة وفعلاً نجحت محاولته، وكان - كما أعهد - الكتاب الأول فى موضوعه، إذ لم يسبقه أحد فى هذا البحث، سوى ما سجلته المصادر التاريخية الكبرى فى ثناياها عن سيرة بنى هاشم، وبنى أمية ولكن دون أن تخصهما بكتاب مستقل.

وجاء الكتاب سجلاً حافلاً مسلسلاً عن المشاكل والخصام القائمة بين هاتين الأسرتين، والصِّراع الدامى الذى دار بينهما زمانًا ليس بالقصير وانتهى إلى مآسى فظيعة اسودّ فيها وجه التاريخ.

ولم يقتصر المؤلف على موقف الأمويين من الهاشميين فحسب، بل تناول موقف العباسيين - استطرادًا - من العلويين، وسرد الكثير من الوقائع التى جرت عليهم، من

قبل الخلفاء العباسيين وأعوانهم، وألوان الضيم والظلم، والاضطهاد والجور، بحيث يقصر الحديث لو حاول الإنسان التحدث فيه.

ولعل الشاعر العربى ليس مبالغًا فى قوله:

تالله ما فعلت أمية فيهم   معشار ما فعلت بنو العباس

وهذا الصِّراع الدامى الذى لاقاه الهاشميون من يومهم الأول، وحتى نهاية الدولة العباسية، وما بعده بألوانه الدامية، سواء من الأمويين أو من العباسيين أو من غيرهم ماهو إلا صراع بين الحق والباطل، والخير والشر، وكانت النتيجة غير ما قدر لها الأمويين وأضرابهم:

فهذا على والأهازيج باسمه   تشق الفضا النائى فهاتوا معاويا
أعيدوا ابن هند إن وجدتم رفاته   رفاتًا وإلا فانشروها مخازيا

وكان المقريزى موفقًا كل التوفيق فى تسجيل تلك الأحداث، وتصوير تلك المآسى مما جسد طبيعة الصِّراع والأحداث بينهما خير تجسيد وأفهم الناس المحق منهما من المبطل.

ولما كان هذا الموضوع وطيد الصلة بمجتمعنا الإسلامى، وإن الأُمة الإسلامية تواقة للإطلاع على تفاصيل هذا الموضوع، كان من الطبيعى أن يلاقى هذا الكتاب رواجًا باهرًا، ويطبع عدة طبعات، خاصة إذا انتهينا إلى أنَّ لهذا الموضوع علاقة أكيدة بعقائدنا وتقاليدنا الدينية.

ولقد عثرت على ثلاث طبعات من هذا الكتاب أُسجل عنها الملاحظات التالية بإيجاز:

١- طبعة ليدن:

وقد طبعت فى عام ١٨٨٨م بمدينة ليدن، ووضع لها الأستاذ جيرار دوس قوس مقدمة باللغة الألمانية، وجاء الكتاب النص العربى منه فى ٧٢ صفحة وينتهى فى الصفحة ٧١، أما الصفحة الأخيرة فقد جاء فيها ما يلى:

«تم هذا الكتاب والحمد للّه أولاً وآخرًا، وقد نقلته من نسخة موجودة عند حضرة على بك فهمى نجل المرحوم رفاعة بك رافع الطهطاوى وبها نقص فى وسطها تركت له بياضًا على قدره، وكتبها عبدالعزيز إسماعيل الأنصارى الطهطانى فى شهر جمادى الثانية سنة ١٢٩٥هـ.

تم كتاب النزاع والتخاصم فيما بين بنى أمية، وبنى هاشم تأليف الشيخ الإمام العالم العلامة العمدة حافظ العصر ومؤرخ الوقت أبى العباس أحمد بن على بن عبدالقادر بن محمد بن تميم المقريزى الشافعى تغمده اللّه تعالى برحمته، وأسكنه فسيح جنته، وأعاد علينا من فوائد علومه وبركته وجعله رفيقًا من النبيين، والصديقين، والشهداء والصالحين على التمام والكمال ونعوذ باللّه من الزيادة والإختلال، والحمد للّه وحده، وصلَّى اللّه على من لانبى بعده، محمد وآله وصحبه والتابعين، نقلت هذه النسخة من نسخة نقلت من خط المؤلف فى خامس عشر ذى القعدة سنة ١١٣١هـ واحد وثلاثين ومائة وألف. كتبه الفقير على ابن السيد محمد الشيلاوى، غفر اللّه له ولوالديه، ولجميع المسلمين، والحمد للّه رب العالمين».

وفى النسخة بعض الشروح البسيطة، وتوجد نسخة من هذه الطبعة فى مكتبة آية اللّه الحكيم العامة فى النجف الأشرق.

٢- طبعة مصر:

وتاريخ هذه الطبعة يعود إلى عام ١٩٢٧م فى أول أغسطس فى المطبعة الإبراهيمية فى مصر، وقد قدم الكتاب الشيخ محمود عرنوس القاضى بالمحاكم الشرعية المصرية، عرِّف فيها المؤلف والكتاب بصورة مختصرة، وتقع فى ٦ صفحات قطع الربع، وأهدى الناشر إبراهيم يوسف صاحب مكتبة الأهرام الكتاب إلى الدكتور على زكى العرابى باشا.

وجاء فى المقدمة المذكورة: «وكتاب التخاصم بين بنى أمية وبنى هاشم وهو الذى تقدم له هذه المقدمة، وهو معتبر من فلسفة علم التاريخ ككتاب السخاوى المسمى الإعلام بالتوبيخ، فكلاهما كتاب فلسفى يدل على مقدرة مؤلفه».

والظاهر أنَّ الناشر اعتمد على نفس النسخة التى اعتمد عليها الناشر لطبعة ليدن، إذ جاءت نفس الفقرات التى مرت فى نهاية طبعة ليدن، ويقع فى ٩٠ صفحة.

وألحق الناشر بهذا الكتاب رسالة للجاحظ فى بنى أمية، وتقع فى ١٢ صفحة وقد ضمنها نقد معاوية ومن والاه.

٣- طبعة النجف:

وتاريخ هذه الطبعة عام ١٣٦٨هـ وقامت بطبعها المطبعة العلمية فى النجف الأشرف، وعنى بتصحيحها الأستاذ الخطيب السيد على الهاشمى - عضو جمعية

الرابطة الأدبية فى النجف الأشرف - وقد صدَّرها بترجمة موجزة للمؤلف تقع فى صفحتين، ويقع الكتاب فى ٦٢ صفحة قطع الربع وألحق بها رسالة الجاحظ فى بنى أمية المتقدمة الذكر، وتقع فى ٩ صفحات وجاء فى مقدمة طبع المطبعة العلمية مايلى:

«رأت المطبعة العلمية من المستحسن إعادة طبع كتاب (النزاع والتخاصم) للمؤرخ الشهير المقريزى لندرته واحتياج الكثيرين إليه، مع العلم أنَّ لدى صاحب المطبعة نسخة خطية ذات شأن، فكلفت آنئذ الأستاذ الخطيب السيد على الهاشمى أن يقف على طبعه وتصحيحه، فلبى السيد الهاشمى هذا الطلب، وصار يقابل النسخة الخطية على النسخة المطبوعة فى القاهرة، والتى نشرها - السيد إبراهيم يوسف - صاحب مكتبة الأهرام فطبعت هذه النسخة القيمة مع المحافظة على تعليقات صاحب الفضيلة الأستاذ محمود عرنوس القاضى، فللأستاذين القاضى، والهاشمى جزيل الشكر والموفقية. ١٥ رجب - ١٣٦٨هـ.

ولصلة الكتاب بعقائدنا، فقد تقرر أن يكون ضمن سلسلة مطبوعاتنا، وفعلاً تحقق ما صممنا عليه، وجعلنا الركيزة الأولى للكتاب طبعة ليدن، وعليها جرت هذه الطبعة، ورجائى أن يكون قد أدى خدمة كبيرة بهذا العمل الجليل، وأن يكون من حيث الطباعة والتصحيح ما يرضى القارىء الكريم، وقد ألحقنا به تعليقًا من باب زيادة الفائدة. والله الموفق.

محمد السيد على بحر العلوم

الحمد لله المعطى ما شاء من شاء لا مانع لعطائه، ولا راد لمراده وقضائه، أحمده بما هو أهله من المحامد، وأشكره على فضله المتزايد، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ولا معاند، وأشهد أنَّ محمدًا عبده ورسوله ونبيه وخليله. اللهم صلِّ عليه وعلى آله وصحابته ومحبيه، وأهل طاعته، وسلم، وشرف، وكرم.

أما بعد:

فإنى كثيرًا ما كنت أتعجب من تطاول بنى أمية إلى الخلافة مع بعدهم من جذم[1] رسول الله (ص) وقرب بنى هاشم وأقول: كيف حدثتهم أنفسهم بذلك وأين بنو أمية وبنو مروان بن الحكم طريد رسول الله (ص) ولعينه من هذا الحديث مع تحكم العداوة بين بنى أمية وبنى هاشم فى أيام جاهليتها، ثم شدة عداوة بنى أمية لرسول الله (ص) ومبالغتهم فى أذاه، وتماديهم على تكذيبه فيما جاء به منذ بعثه الله عز وجل بالهدى ودين الحق إلى أن فتح مكة شرَّفها الله تعالى فدخل من دخل منهم فى الإسلام كما هو معروف مشهور، وأُردد قول القائل:

كم من بعيد الدار نال مراده وآخر دانى الدار وهو بعيد

فلعمرى، لا بعد أبعد مما كان بين بنى أُمية وبين هذا الأمر إذ ليس لبنى أُمية سبب إلى الخلافة ولا بينهم وبينها نسب إلا أن يقولوا: «إنا من قريش» فيساوون فى هذا الاسم قريش الظواهر، لأن قوله (ص): «الأئمة من قريش» واقع على كل قرشى[2].

---

(١) جذم كل شىء: أصله، والجمع: أجذام، وجذوم.

(٢) يقصد بقريش الظواهر مجموعة القبائل التى نزلت حول مكة من بنى الحارث وبنى محارب وبنى تميم وغيرهم. وحديث الأئمة من قريش رواه الطبرانى والنسائى والبخارى فى التاريخ.

ومع ذلك فأسباب الخلافة معروفة، وما يدعيه كل جيل معلوم، وإلى كل ذلك قد ذهب الناس، فمنهم من ادعاه لعلى بن أبى طالب رضى الله عنه باجتماع القرابة والسابقة والوصية بزعمهم فإن كان الأمر كذلك فليس لبنى أُمية فى شىء من ذلك دعوى عند أحد من أهل القبلة.

وإن كانت إنما تنال الخلافة بالوراثة، وتُستحق بالقرابة، وتستوجب بحق العصبة، فليس لبنى أمية فى ذلك متعلق عند أحد من المسلمين.

وإن كانت لا تنال إلا بالسابقة، فليس لهم فى السابقة قديم مذكور، ولا يوم مشهور، بل لو كانوا إذ لم تكن لهم سابقة ولم يكن فيهم مايستحقون به الخلافة لم يكن فيهم ما يمنعهم منها أشد المنع كان أهون وكان الأمر عليهم أيسر.

﴿ فصل فى أبى سفيان ومروان ﴾

فقد عرفنا كيف كان أبو سفيان فى عداوته النبى (ص) وفى محاربته وفى اجلابه عليه وفى غزوه إياه، وعرفنا إسلامه كيف أسلم، وخلاصه كيف خلص، على أنه إنما أسلم على يد العباس رضى الله عنه، والعباس هو الذى منع الناس من قتله وجاء به رديفًا[٣] إلى النبى (ص) وسأل أن يشرّفه وأن يكرمه وينوه به، وتلك يد بيضاء، ونعمة غراء، ومقام مشهور، وخبر غير منكور، فكان جزاء ذلك من بنيه أن حاربوا عليًا وسموا الحسن وقتلوا الحسين وحملوا النساء على الأقتاب[٤] حواسر[٥] وأرادوا الكشف عن عورة على بن الحسين حين أشكل عليهم بلوغه، كما يصنع بذرارى المشركين إذا دخلت

(٣) رديفًا أى راكبًا خلفه.
(٤) الاقتاب مفردها قتب وهى الرحل الصغير.
(٥) حواسر أى مكشوفات وهو هنا يشير إلى نقل نساء آل البيت إلى يزيد بعد مذبحة كربلاء.

ديارهم عنوة[٦] وبعث معاوية بن أبى سفيان إلى اليمن بسر بن أرطأة[٧] فقتل ابنى عبيدالله بن العباس، وهما غلامان لم يبلغا الحلم، فقالت أمهما عائشة بنت عبدالله بن عبد المدان بن الديان ترثيهما:

يامن أحس بابنىّ الذين هما كالدرتين تشظّى عنهما الصدف
أنحى على ودجى طفلَّى مرهفة مطرورة وعظيم الإثم يقترف[٨]

وقتلوا لصلب على بن أبى طالب تسعة، وصلب عقيل بن أبى طالب تسعة، ولذلك قالت نائحتهم[٩]:

عين جودى بعبرة وعويل واندبى إن ندبت آل الرسول
تسعة منهم لصلب على قد أصيبوا وتسعة لعقيل

هذا وهم يزعمون أن عقيلاً أعان معاوية على علي، فإن كانوا كاذبين فما أولاهم بالكذب، وإن كانوا صادقين فما جازوه خيرًا إذ ضربوا عنق مسلم بن عقيل صبرًا وقتلوا معه هانىء بن عروة لأنه آواه ونصره[١٠].

---

(٦) على بن الحسين هو على الأصغر كان مريضًا ولم يشارك فى القتال يوم كربلاء وأخذه رجال يزيد أسيرًا. وهو الملقب بالإمام السجاد زين العابدين الإمام الرابع عند الشيعة.

(٧) بسر بن أرطأة القرشى من رجال معاوية المتعصبين ضد على وآل البيت اختلف فى تاريخ وفاته. انظر طبقات ابن سعد جـ ٧. وانظر كتب التراجم.

(٨) تشطى أى تشقق والودج عرق فى العنق وودجى أى عرقى ومطرورة أى محدودة وهذه الأبيات وردت ضمن أبيات أخرى لها فى الكامل لابن الأثير ومروج الذهب للمسعودى والاستيعاب فى معرفة الأصحاب لابن عبدالبر والكامل للمبرد. انظر أحداث عام ٤٠هـ فى كتب التاريخ.

(٩) هذه الأبيات منسوبة إلى بنت عقيل بن أبى طالب وهى ترثى شهداء كربلاء. انظر العقد الفريد لابن عبدربه جـ٤. وانظر مقاتل الطالبيين للأصفهانى.

(١٠) مسلم بن عقيل وهانىء بن عروة قتلا على يد عبيدالله بن زياد بالكوفة وكان الإمام الحسين قد أرسل مسلم إلى الكوفة لطلب البيعة من أهلها. انظر كتب التاريخ أحداث عام ٦٠هـ.

قال الشاعر[١١]:

فإن كنت لا تدرين ما الموت فانظرى إلى هانىء فى السوق وابن عقيل
تَرَى بطلاً قد هشَم السيف رأسه وآخر يُرمى من طمار قتيل

وأكلت هند كبد حمزة، فمنهم آكلة الأكباد، ومنهم كهف النفاق ونقروا بالقضيب بين ثيتى الحسين، ونبشوا زيدًا وصلبوه وألقوا رأسه فى عرصة الدار تطأه الأقدام وتنقر دماغه الدجاج[١٢] حتى قال القرشى:

أطردوا الديك عن ذؤابة زيد طال ما كان لاتطأه الدجاج

وقال شاعر بنى أمية[١٣]:

صلبنا لكم زيدًا على جذع نخلة
ولم نَرَ مهديًا على الجذع يصلب

وقتلوا يحيى بن زيد وسمّوا قاتله ثائر آل مروان وناصر الدين[١٤].

---

(١١) اختلف أهل السير فى صاحب هذه الأبيات فنسبها الدنيورى فى الأخبار الطوال إلى عبدالرحمن بن الزبير الأسدى أما الطبرى فنسبها إلى الفرذدق ونسبها الأصفهانى فى مقاتل الطالبيين إلى عبدالله بن الزبير الأسدى والطمار المكان المرتفع.

(١٢) كهف النفاق يقصد به هنا أبو سفيان بن حرب والدمعاوية. وزيد هو ابن على بن الحسين الذى ثار على هشام بن عبدالملك وقتل وصلب.

(١٣) هو الأعور الطلبى حكيم بن عياش كان من خصوم على وممن يهجون آل البيت وهجاه الكميت شاعر آل البيت. انظر وفيات الأعيان لابن خلكان: ١١١/٦.

(١٤) هو يحيى بن زيد بن على بن الحسين ووالده زيد هو الذى ثار على هشام بن عبدالملك وقتل ثم صلب. وثار يحيى على الوليد بن يزيد وقتل وصلب ويروى أن أبا مسلم الخراسانى انتقم من قتلته بعد ذلك. انظر مقاتل الطالبيين للأصفهانى. وانظر الكامل لابن الأثير جـ ١٠٨/٥.

وضربوا على بن عبدالله بن العباس بالسياط مرتين على أن تزوج بنت عمه الجعفرية التى كانت عند عبدالملك بن مروان.

وعلى أن نحلوه[١٥] قتل سليط وسموا أبا هاشم بن محمد بن على[١٦] وضرب سليمان بن حبيب بن المهلب أبا جعفر المنصور بالسياط قبل الخلافة، وقتل مروان الحمار الإمام إبراهيم بن محمد بن على أدخل رأسه فى جراب نورة حتى مات[١٧]. وقتلوا يوم الحرة[١٨] عون بن عبدالله بن جعفر، وقتلوا يوم الطف[١٩] مع الحسين أبا بكر ابن عبدالله بن جعفر، وقتلوا يوم الحرة الفضل بن ربيعة بن الحارث بن عبدالمطلب، والعباس بن عتبة بن أبى لهب وعبدالرحمن بن العباس بن ربيعة بن الحارث بن عبدالمطلب. ومع ذلك كله فإن عبدالملك بن مروان أبو الخلفاء من بنى مروان أعرق الناس فى الكفر لأن جده لأبيه الحكم بن أبى العاص لعين رسول الله (ص) وطريده وجده لأمه معاوية بن المغيرة بن أبى العاصى طرده رسول الله (ص)، ثم قتله على وعمار صبرًا[٢٠].

---

(١٥) نحلوه أى نسبوا إليه قتل سليط بن عبدالله بن عباس وإليه ينسب أبو مسلم الخراسانى.

(١٦) سمه سليمان بن عبدالملك بسبب خوفه منه على الخلافة.

(١٧) جراب نورة أى جراب مملوء بالجير.

(١٨) يوم الحرة يوم عصت المدينة يزيد بن معاوية عام ٦٣هـ بعد مذبحة كربلاء واستباح فيها جنود يزيد نساء المدينة وخربوها. انظر تفاصيل هذه الوقعة الشنعاء والوصمة السوداء فى كتب التاريخ أحداث عام ٦٣هـ.

(١٩) يوم الطف هو يوم كربلاء العاشر من محرم عام ٦١هـ.

(٢٠) عبدالملك بن مروان هو الخليفة الرابع فى دولة بنى أمية وأولاده هم الذين حكموا من بعده. انظر سيرته فى تاريخ الخلفاء للسيوطى وكتب التاريخ، ومروان والده تولى الحكم بعد يزيد وتنازل معاوية الثانى. أما الحكم بن العاص ومعاوية بن المغيرة بن أبى العاص كلاهما حلت عليه اللعنة والطرد من قبل الرسول (ص) بعد فتح مكة وعاد الحكم إلى الظهور على الساحة فى عهد عثمان بن عفان وكان له دوره فى الفتنة التى أودت بحياته كما كان له دورًا فى وقعة الجمل من قبل وهو الذى رمى طلحة بن عبيدالله بسهم فقتله كى يشعل نار الفتنة بين المسلمين. وسيأتى ذكر الحكم ومعاوية.

ولا يكون أمير المؤمنين إلا أولاهم بالإيمان وأقدمهم فيه، هذا وبنوأمية قد هدموا الكعبة[٢١]، وجعلوا الرسول دون الخليفة[٢٢]، وختموا فى أعناق الصحابة[٢٣]، وغيروا أوقات الصلاة[٢٤]، ونقشوا أكف المسلمين، ومنهم من أكل وشرب على منبر رسول الله (ص) ونهبت الحرم ووطئت المسلمات فى دار الإسلام بالبقيع فى أيامه[٢٥].

وكان أبو جعفر المنصور إذا ذكر ملوك بنى أمية قال: كان عبدالملك جبارًا لا يبالى ماصنع، وكان الوليد محنونًا، وكان سليمان همهّ بطنه وفرجه، وكان عمر أعور بين عميان، فإذا قيل عدل قال: إن من عدله أن لا يقبلها ممن لم يكن لها أهلاً، ويتولاها بغير استحقاق، وكان رجلهم هشام، وقد صدق أبو جعفر، وكان يقال لهشام: الأحول السراق لأنه ما زال يدخل عطاء الجند شهرًا فى شهر حتى أخذ لنفسه مقدار أرزاق سنة فلذلك قالوا: الأحول السراق، وقال خاله إبراهيم بن هشام المخزومى ما رأيت من هشام خطأ قط إلا مرتين فإن الحادى حدا به مرة فقال:

إن عليك أيها البختى   أكرم من تمشى به المطى

فقال صدق قولك.

---

(٢١) يشير المقريزى هنا إلى ضرب الأمويين الكعبة بالمنجنيق المرة الأولى عام ٦٤هـ. والمرة الثانية عام ٧٣هـ على يد الحجاج بن يوسف وذلك أثناء حركة ابن الزبير.

(٢٢) المقصود أن معاوية والمروانيين من بعده سنوا سنة تقديس الحكام وربطهم بالشرع عن طريق طبقة الفقهاء التى اخترعوها وربط طاعتهم بطاعة الله وعدم رد قولهم أو مراجعتهم ثم تطاولوا بعد ذلك على الرسول (ص) وبنى هاشم. وستأتى الإشارة لذلك.

(٢٣) كان ذلك فى عام ٧٤هـ بعد القضاء على ابن الزبير حين قام الحجاج بوضع أختام الرصاص فى أعناق الصحابة. انظر كتب التاريخ.

(٢٤) قام معاوية والمروانيين من بعده بتغيير الكثير من السنن التى سنها الرسول (ص) فيما يتعلق بالصلاة وغيرها ويروى: أول من يبدل سنتى رجل من بنى أمية. رواه أبى يعلى وابن أبى شيبة.

(٢٥) الإشارة هنا إلى ماحدث يوم الحرة.

وقال مرة: والله لأشكونَّ سليمان بن عبدالملك إلى أمير المؤمنين عبدالملك بن مروان.

وهذا ضعف شديد وجهل عظيم.

وكان هشام يقول «والله لأستحى من الله أن أعطى رجلاً أكثر من أربعة آلاف درهم».

وقدّم هشام ابنه سعيدًا على حمص فرمى بالنساء فكتب أبو الجعد الطائى إلى هشام مع خصى وأعطاه فرسًا على أن يبلِّغ الكتاب وفيه:

أبلغ لديك أمير المؤمنين فقد أمددتنا بأمير ليس عنّينا
طورًا يخالف عمرًا فى حليلته وعند راحة يبغى الأجر والدينا(٢٦)

فعزله وقال: يا ابن الخبيثة تزنى وأنت ابن أمير المؤمنين، أعجزت أن تفجر فجور قريش قبل هذا؟ وقال: هذا لا يلى لى عملاً أبدًا.

وحسبك من عبدالملك بن مروان قيامه على منبر الخلافة وهو يقول: «ما أنا بالخليفة المستضعف، ولا بالخليفة المداهن، ولا بالخليفة المأفون. وهؤلاء هم سلفه وأئمته، وبشفعتهم قام ذلك المقام وبتأسيسهم وتقدمهم نال تلك الرياسة، ولولا العادة المتقدمة والأجناد المجنّدة والصنائع القائمة لكان أبعد خلق الله من ذلك المقام، فالمستضعف عنده عثمان بن عفان، والمداهن عنده معاوية، والمأفون عنده يزيد بن معاوية، والضعيف لا يكون خليفة لأنه الذى ينال القوى منه عند انتشار الأمر عليه، والمداهن لا يكون إمامًا، ولا يوثق منه بعقد، ولا بوفاء عهد، ولا بضمير صحيح ولا بغيب كريم، والمأفون لا يكون إمامًا، وهذا الكلام نقض لسلطانه، وعداوة لأهله وإفساد لقلوب

---

(٢٦) البيتان من العقد الفريد لابن عبدربه جـ ٤/٤٤٨.

شيعته، وقرة عين عدوه، وعجز فى رأيه، فإنه لم يقدر على إظهار قوته، إلا بأن يظهر عجز أئمته. وقد كانت المنافرة لا تزال بين بنى هاشم وبنى عبدشمس بحيث أنه قال: إنَّ هاشمًا وعبدشمس ولدا توأمين فخرج عبدشمس فى الولادة قبل هاشم وقد لصقت أصبع أحدهما بجبهة الآخر فلما نُزعت دمى المكان فقيل سيكون بينهما أو بين ولديهما دم فكان كذلك. ويقال: إن عبدشمس وهاشمًا كانا يوم ولدا فى بطن واحد كانت جباههما ملصقة بعضها ببعض فأخذ السيف ففرق بين جباههما بالسيف، فقال بعض العرب: ألا فرق ذلك بالدرهم فإنه لا يزال السيف بينهم وفى أولادهم إلى الأبد.

﴿ جـذور العـداء ﴾

وكانت المنافرة بين هاشم بن عبد مناف بن قصى وبين ابن أخيه أُمية بن عبدشمس بن عبد مناف وسببها: أن هاشمًا كانت إليه الرفادة(٢٧) التى سنها جده قصى ابن كلاب بن مرة مع السقاية وذلك أن أخاه عبدشمس كان يسافر وقلما يقيم بمكة وكان رجلاً مقلاً وله ولد كثير فاصطلحت قريش على أن ولى هاشم السقاية والرفادة، وكان هاشم رجلاً موسرًا وكان إذا حضر موسم الحج قام فى قريش فقال: «يا معشر قريش إنكم جيران الله وأهل بيته، وإنكم يأتيكم فى هذا الموسم زوار الله يعظمون حرمة بيته، وهم ضيف الله وأحق الضيف بالكرامة ضيفه، وقد خصكم الله بذلك وأكرمكم به حفظ منكم أفضل ما حفظه جار من جاره، فأكرموا ضيفه وزواره فإنهم يأتون شعثًا غبرًا من كل بلد على ضوامر كالقداح وقد أزحفوا وتفلّوا وقملوا وأرملوا فاقروهم واغنوهم وأعينوهم(٢٨).

---

(٢٧) الرفادة من الرفد أى الإعانة.

(٢٨) المقصود أن الوافدين على بيت الله الحرام قد أخذ منهم السفر مأخذه فهزلوا من الجوع واتسخوا واحتاجوا.

فكانت قريش ترافد على ذلك حتى أن كان أهل البيت ليرسلون بالشىء اليسير على قدرهم فيضمه هاشم إلى ما أخرج من ماله وما جمع مما يأتيه به الناس، فإن عجز كمله، وكان هاشم يُخرج فى كل سنة مالاً كثيرًا وكان قوم من قريش يترافدون، فكانوا أهل يسار فكان كل إنسان منهم ربما أرسل بمائة مثقال هرقلية(٢٩).

وكان هاشم يأمر بحياض من آدم فتجعل فى موضع زمزم من قبل أن تحفر زمزم، ثم يستقى فيها من الآبار التى بمكة فيشرب الحاج. وكان يطعمهم أول مايطعمهم قبل التروية بيوم بمكة ويطعمهم بمنى وبعرفة وبجمع، فكان يثرد لهم الخبز واللحم، والخبز والسمن، والسمن والسويق والتمر، ويحمل لهم الماء حتى يتفرق الناس لبلادهم.

وكان هاشم يسمى عمرًا وإنماقيل له «هاشم» لهشمه الثريد وهو وأول من أطعم الثريد بمكة وكان أُمية بن عبدشمس ذا مال فتكلف أن يفعل كما فعل هاشم من إطعام قريش فعجز عن ذلك فشمت به ناس من قريش وعابوه، فغضب ونافر هاشمًا على خمسين ناقة سود الحدق تنحر بمكة وعلى جلاء عشر سنين وجعلا بينهما الكاهن الخزاعى جد عمرو بن الحمق الصحابى، وكان منزله عسفان وخرج مع أُمية أبو همهمة حبيب بن عامر بن عميرة بن وديعة بن الحارث بن فهر بن مالك الفهرى فقال الكاهن: «والقمر الباهر، والكوكب الزاهر، والغمام الماطر، وما بالجو من طائر، وما اهتدى بعلم مسافر، من منجد وغائر، لقد سبق هاشم أُمية إلى المآثر، أول منه وآخر، وأبو همهمة بذلك خابر».

فأخذ هاشم الإبل فنحرها وأطعم لحمها من حضر، وخرج أُمية إلى الشام فأقام بها عشر سنين فكان هذا أول عداوة وقعت فى بنى هاشم وبنى أمية، ولم يكن أُمية فى

---

(٢٩) هى العملة البيزنطية السائدة بين العرب آنذاك.

نفسه هناك وإنما رفعه أبوه وبنوه وكان مضعوفًا وكان صاحب عهار يدل على ذلك قول تفيل بن عبد العزّى جد عمر بن الخطاب حين تنافر إليه حرب بن أُمية وعبدالمطلب بن هاشم فنفر عبدالمطلب وتعجب من إقدامه عليه وقال:

أبوك معاهر وأبوه عفٌّ وذاد الفيل عن بلد حرام

وذلك أنَّ أمية كان يعرض لامرأة من بنى زهرة فضربه رجل منهم ضربة بالسيف وأراد بنو أُمية ومن تابعهم إخراج زهرة من مكة، فقام دونهم قيس بن عدى السهمى وكانوا أخواله وكان منيع الجانب شديد العارضة حمىَّ الأنف أبىَّ النفس، فقام دونهم وقال وصاح «اصبح ليل» فذهبت مثلاً ونادى «ألا إنَّ الضاعن مقيم[٣٠]».

ففى هذه القصة يقول وهب بن عبد مناف بن زهرة:

مهلاً أُمى فإن البغى مهلكة لا يكسبنَّك ثوبًا شرَّه ذكر
تبدو كواكبه والشمس طالعة يصب فى الكأس منه الصاب والمقر[٣١]

وصنع أُمية فى الجاهلية شيئًا لم يصنعه أحد من العرب زوج ابنه أبا عمرو بن أُمية امرأته فى حياة منه، والمقتيون فى الإسلام هم الذين أولدوانساء أبائهم واستنكحوهن من بعد موتهم، وأما ان يتزوجها فى حياته ويبنى عليها وهو براء فإن هذا لم يكن قط.

---

(٣٠) الظاعن الراحل.

(٣١) وهب بن عبد مناف هو جد الرسول (ص) لأمه. والمقر الشىء المر.

وأُمية قد جاوز هذا المعنى ولم يرض بهذا المقدار حتى نزل عنها له وزوجها منه وأبو معيط بن أبى عمرو بن أُمية قد زاد فى المقت درجتين ثم نافر حرب بن أُمية عبدالمطلب بن هاشم من أجل يهودى كان فى جوار عبدالمطلب فما زال أُمية يغرى به حتى قتل وأخذ ماله فى خبر طويل.

وتمادت العداوة بين البيتين حتى قام سيِّد بنى هاشم أبو القاسم محمد بن عبدالله بن عبدالمطلب بن هاشم رسول الله (ص) بمكة يدعو قريشًا إلى توحيد الله تعالى جلت قدرته وترك ما كانت تعبد من دون الله فانتدب لعداوته (ص) جماعة بنى أُمية منهم أبو أُحيحة سعيد بن العاصى بن أُمية حتى هلك على كفره بالله فى أول سنة من الهجرة أو فى سنة أثنين وهو يحادّ الله ورسوله، ومنهم عقبة بن أبى معيط أبان بن عمرو بن أُمية، وكان أشدّ الناس عداوة لرسول الله (ص) وإدًّا إلى أن قاتل يوم بدر فأتى به إلى رسول الله (ص) وقد أُسر فأمر بضرب عنقه فجعل يقول:

يا ويلتى علام أقتل يا معشر قريش أأقتل من بين هؤلاء!

فقال رسول الله (ص): لعدواتك لله ولرسوله.

فقال: يامحمد منك أفضل فاجعلنى كرجل من هؤلاء من قومى وقومك، يامحمد من للصبية؟

قال: النار وضرب عنقه.

وقيل: إن رسول الله (ص) أمر به فصلب، فكان أول مصلوب فى الإسلام.

وقال عطاء عن الشعبى: إنَّ رسول اللّه (ص) قال لعقبة بن أبى معيط يوم بدر: واللّه لأقتلنك.

فقيل أتقتله من بين قريش؟

قال: نعم إنّه وطىء على عنقى وأنا ساجد، فلما رفعت حتى ظننت أن عينّى قد سقطتا، وجاء وأنا ساجد بسلى شاة فألقاها على رأسى، فأنا قاتله[٣٢].

ومنهم الحكم بن أبى العاصى بن أمية وكان عارًا فى الإسلام وكان مؤذيًا لرسول اللّه (ص) بمكة يشتمه ويسمعه ما يكره، فلما كان فتح مكة أظهر الإسلام خوفًا من القتل. فلم يحسن إسلامه وكان مغموصًا عليه فى دينه[٣٣].

ثم قدم المدينة فنزل على عثمان بن عفان بن أبى العاصى بن أُمية، وكان يطالع الأعراب والكفار بأخبار رسول اللّه (ص)، وبينا رسول اللّه (ص) يمشى ذات يوم مشى الحكم خلفه فجعل يختلج بأنفه وفمه كأنَّه يحاكى رسول اللّه (ص)، يتفكك ويتمايل فالتفت رسول اللّه (ص) فرآه، فقال له: كن كذلك، فما زال بقية عمره على ذلك.

واطلع يومًا على رسول اللّه (ص) وهو فى حجرة بعض نسائه فخرج إليه بعنزة فقال: من عذيرى من هذا الوزغة لو أدركته لفقأت عينه[٣٤].

---

(٣٢) انظر سيرة ابن هشام جـ ١.

(٣٣) مغموصًا أى مطعونًا محقرًا.

(٣٤) انظر أنساب الأشراف للبلاذرى جـ ١٢٤/١. وانظر مسلم كتاب الآداب والبخارى كتاب الاستئذان والديات.

وقال زهير بن محمد عن صالح بن أبى صالح قال: حدثنى نافع بن جبير بن مطعم عن أبيه قال: كنا مع النبى (ص) فمر الحكم بن أبى العاصى فقال النبى (ص): ويل لأُمتى مما فى صلب هذا[٣٥].

ثم إنَّ النبى (ص) لعنه وما ولد وغرّبه عن المدينة فلم يزل خارجًا عنها بقية حياة رسول اللّه (ص) وخلافة أبى بكر وعمر فلما استخلف عثمان ردَّه إلى المدينة وولده فكان ذلك مما انكره الناس على عثمان، وكان أعظم الناس شؤمًا على عثمان فإنَّهم جعلوا إدخاله المدينة بعد طرد النبى إيّاه وبعد امتناع أبى بكر وعمر من ذلك أكبر الحجج على عثمان ومات فى خلافته فضرب على قبره فسطاطًا[٣٦].

وقد قالت عائشة لمروان بن الحكم: أشهد أنَّ رسول اللّه (ص) لعن أباك وأنت فى صلبه[٣٧].

---

(٣٥) رواه الهيثمى. وانظر تطهير الجنان واللسان عن الخطور والتفوه بثلب معاوية بن أبى سفيان لابن حجر الهيتمى ملحق بكتابه الصواعق المحرقة.

(٣٦) نقل عن بعض فقهاء التبرير أن الحكم ذهب باختياره، ولم يطرده الرسول إلا أن كل الروايات تؤكد وقوع الطرد. انظر منهاج السنة لابن تيمية جـ ١٩٦/٣ و ٢٣٥. وانظر العواصم من القواصم لأبى بكر بن العربى. وقال ابن حزم: ونفى رسول اللّه (ص) لم يكن حدًا واجبًا ولا شريعة على التأبيد. وإنما كان عقوبة على ذنب استحق به النفى. والتوبة مبسوطة. فإذا تاب سقطت عنه تلك العقوبة بلا خلاف من أحد من أهل الإسلام وصارت الأرض كلها مباحة. انظر الفصل فى الملل والنحل جـ ١٥٤/٤. وتأمل قوله بلا خلاف من أحد من أهل الإسلام فكأن المخالفين فى هذا ليسوا من أهل الإسلام.

(٣٧) روايات لعن الحكم وأولاده وردت فى عدة مصادر ففى رواية البزار، لقد لعن اللّه الحكم وما ولد على لسان نبيه. ويروى عن الحسين قوله فى مروان: فو اللّه لقد لعنك اللّه على لسان نبيه (ص) وأنت فى صلب أبيك. وعن ابن الزبير قال: ورب الكعبة لقد لعن رسول اللّه (ص) فلانًا - الحكم - وما ولد من صلبه. انظر تطهير الجنان واللسان. وقال ابن الأثير: رويت أخبار كثيرة فى لعنه ولعن من فى صلبه رواها الحفاظ وفى أسانيدها كلام. الكامل: حـ ١٥/٤.

وقال عبدالرحمن بن حسان بن ثابت لمروان بن الحكم:

إنّ اللعين أباك فارم عظامه ... إنّ ترم ترم مخلجًا مجنونا
يضحى خميص البطن من عمل التقى ... ويَظَلُّ من عمل الخبيث بطينا

وكان الحكم هذا يقال له: طريد رسول الله ولعينه، وهو والد مروان بن الحكم الذى صارت الخلافة إليه بالغلبة وتوارثها بنوه من بعده، وكان رجلاً لا فقه له، ولا يعرف بالزهد، ولا برواية الآثار، ولا بصحبة، ولا ببعد همَّة، وإنَّما ولى رستاقًا من رساتيق داربجرد لابن عامر، ثم ولى البحرين لمعاوية، وقد كان جمع أصحابه ومن تابعه ليبايع ابن الزبير حتى رده عبيدالله بن زياد وقال يوم مرج راهط والرؤوس تنبذ عن كواهلها.

وماذا لهم غير حين النفو ... س أى غلامى قريش غلب

وهذا كلام من لا يستحق أن يلى ربعًا من الأرباع ولا خمسًا من الأخماس.

فكان مروان أول من شق عصاً للإسلام بغير تأويل وقال لخالد بن يزيد بن معاوية وأم خالد يومئذ عنده: اسكت يا ابن الرَّطبة فكان حتفه فى هذه الكلمة[٣٨].

وكتب عبدالملك بن مروان إلى محمد بن الحنفية: من عبدالملك أمير المؤمنين إلى محمد بن الحنفية، فلما نظر إلى عنوان الصحيفة استرجع وقال: الطلقاء ولعناء رسول الله (ص) على سائر الناس والذى نفسى بيده إنها لأمور لا يقرُّ قرارها.

---

(٣٨) لقى مروان حتفه على يد أم خالد خنقًا بالوساده وقصته مشهورة فى كتب التاريخ. انظر أحداث عام ٦٥هـ.

ومنهم: عتبة بن ربيعة بن عبدشمس بن أمية أحد من عادى الله ورسوله إلى أن قتل ببدر كافرًا قتله حمزة بن عبدالمطلب رضى الله عنه، وعتبة هذا هو أبو هند بنت عتبة التى لاكت كبد حمزة بن عبدالمطلب رضى الله عنه، ثم لفظتها واتخذت مما قطعت منه مسكين ومعضدين وخدمتين وأعطت وحشيًا قاتل حمزة، حليًا كان عليها من ورق وجزع وخواتيم ورق كانت فى أصابع رجليها كل ذلك شماتة بحمزة رضى الله عنه من أجل أنه قتل أباها عتبة رأس الكفر فى يوم بدر وقيل بل قتله عبيده بن الحارث بن عبدالمطلب وأنشدت هند:

عينى جودا بدمع سرب على خير خندف لم ينقلب
تداعى به رهطه قصرة بنو هاشم وبنو المطلب

وقيل: إنَّ عليًا لما فرغ من الوليد بن عتبة مال مع عبيدة على عتبة فقتلاه جميعًا، وهند هذه أمر رسول الله (ص) يوم فتح مكة بقتلها فأسلمت، ولما حضرت مع النساء لتبايع بيعة الإسلام كان مما قال لهن رسول الله (ص) ولا تقتلن أولادكن، فقالت ربيناهم يا محمد صغارًا وقتلتهم كبارًا. وهى أم معاوية بن أبى سفيان الذى قاتل على بن طالب رضى الله عنه وأخذ الخلافة من الحسن بن على رضى الله عنه واستلحق زياد بن سمية من زنية واستخلف على الأمَّة ابنة يزيد القرود ويزيد الخمور(٣٩).

---

(٣٩) يزيد القرود ويزيد الخمور يقصد بهما ولع يزيد بالقرود وكان له قرد يلهو به مع سكره الدائم وعشقه للخمور. انظر سيرة يزيد فى كتب التاريخ. وانظر حوادث فتح مكة فى سيرة ابن هشام. وسيرة معاوية وتآمره على الحسن بدس السم له مشهورة بعد أن سلم له بالحكم شريطة أن يعود إليه بعد وفاته لكن معاوية اخترع ولاية العهد وأول ملكية فى الإسلام وجعل يزيد الفاسق يلى أمر المسلمبن من بعده أن تخلص من الحسن. انظر الاصابة فى تمييز الصحابة لابن حجر والاستيعاب فى معرفة الأصحاب لابن عبدالبر وكتب التاريخ والتراجم.

ومنهم: الوليد بن عتبة بن ربيعة وقتل ببدر كافرًا قتله على رضى اللّه عنه، والوليد هذا هو خال معاوية.

ومنهم: شيبة بن ربيعة بن عبدشمس عم هند أم معاوية، وكان يجتمع مع قريش فيما تكيد رسول اللّه (ص) من الأذى وقتله اللّه يوم بدر فيمن قتل من أعدائه.

ومنهم: أبو سفيان صخر بن حرب بن أمية قائد الأحزاب الذى قاتل رسول اللّه (ص) يوم أحد وقتل من خيار أصحابه سبعين ما بين مهاجرى وأنصارى، منهم أسد اللّه حمزة بن عبدالمطلب بن هاشم، وقاتل رسول اللّه (ص) فى يوم الخندق أيضًا وكتب إليه:

«باسمك اللهم أحلف باللات والعزى وساف ونائلة وهبل لقد سرت إليك أريد استئصالكم فأراك قد اعتصمت بالخندق فكرهت لقاءنا ولك منى كيوم أحد».

وبعث بالكتاب مع أبى أسامة الجشمى فقرأه على النبى (ص) أبى بن كعب رضى اللّه عنه فكتب إليه رسول اللّه (ص): «قد أتانى كتابك وقديمًا غرك يا أحمق بنى غالب وسفيههم باللّه الغرور، وسيحول اللّه بينك وبين ماتريد ويجعل لنا العاقبة، وليأتين عليك يوم اكسر فيه اللات والعزى وساف ونائلة وهبل يا سفيه بنى غالب.

ولم يزل يحاد اللّه ورسوله حتى سار رسول اللّه (ص) لفتح مكة فأتى العباس بن عبدالمطلب رضى اللّه عنه رسول اللّه (ص) وقد أردفه وذلك أنَّه كان صديقه ونديمه فى الجاهلية، فلما دخل به على رسول اللّه (ص) سأله أن يؤمنه فلما رآه رسول اللّه (ص) قال له: ويلك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أن لا إله إلا اللّه؟! فقال: بأبى أنت وأمى

ما أوصلك وأجملك وأكرمك! والله لقد ظننت آنه لو كان مع الله غيره لقد أغنى عنى شيئاً.

فقال: يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أنى رسول الله؟ فقال: بأبى أنت وأمى ما أوصلك وأجملك وأكرمك! أما هذه ففى النفس منها شىء.

فقال له العباس: ويلك إشهد بشهادة الحق قبل أن تضرب عنقك، فشهد وأسلم، فهذا حديث إسلامه كما ترى.

واختلف فى حس إسلامه فقيل: إنَّه شهد حنيناً مع رسول الله (ص)، وكانت الأزلام معه يستقسم بها، وكان كهفاً للمنافقين وإنَّه كان فى الجاهلية زنديقاً.

وفى خبر عبدالله بن الزبير أنَّه رآه يوم اليرموك قال: فكانت الروم إذا ظهرت قال أبو سفيان: إيه بنى الأصفر فإذا كشفهم المسلمون قال أبو سفيان:

وبنو الأصفر الملوك ملوك الر   وم لم يسبق منهم مذكور[٤٠]

فحدث به ابن الزبير أباه فلما فتح الله على المسلمين، فقال الزبير: قاتله الله يأبى إلا نفاقاً أو لسنا خيراً له من بنى الأصفر.

---

(٤٠) كان أبو سفيان من المؤلفة قلوبهم هو وولده معاوية واستمرا على ذلك حتى جاء عمر فألغى نصيب المؤلفة وعطل الحكم الشرعى فارتفع مقام أبو سفيان وولده. والحق أن سيرته هو وولده لا تؤكد إسلامه. انظر سيرة ابن هشام وكتب التاريخ.

وذكر عبدالرزاق عن ابن المبارك عن مالك بن مغول - بالغين - عن ابن أبجر قال: لما بويع لأبى بكر جاء أبو سفيان إلى على رضى الله عنه فقال:

أغلبك على هذا الأمر أقل بيت فى قريش، أما والله لأملأنّها خيلاً ورجالاً إن شئت؟

فقال علىّ: ما زلت عدُوًّا للإسلام وأهله فما ضرَّ ذلك الإسلام وأهله شيئًا[٤١].

وذكر المدائنى عن أبى زكريا العجلانى عن أبى حازم عن أبى هريرة قال: حج أبو بكر ومعه أبو سفيان بن حرب فكلم أبو بكر أبا سفيان فرفع صوته، فقال أبو قحافة: إخفض صوتك يا أبا بكر عن ابن حرب، فقال أبو بكر: يا أبا قحافة إنَّ الله بنى بالإسلام بيوتًا كانت غير مبنية وهدم به بيوتًا كانت فى الجاهلية مبنية، وبيت أبى سفيان مما هدم.

فليت شعرى بعد هذا بأى وجه يبنى بيت أبى سفيان بعدما هدمه الله؟!.

وروى عن الحسن: أنَّ أبا سفيان دخل على عثمان حين صارت الخلافة إليه فقال:

«صارت إليك بعد تيم وعدى فأدرها كالكرة واجعل أوتادها بنى أميّة فإنّما هو الملك ولا أدرى ما جنة ولا نار.

فصاح به عثمان قم عنى فعل الله بك وفعل.

---

(٤١) انظر حوادث سقيفة بنى ساعدة بعد وفاة النبى فى كتب التاريخ. وانظر السيف والسياسة للمعلق.

وأبو سفيان هذا هو أبو معاوية ولم يزل بعد إسلامه هو وابنه معاوية من المولفة[٤٢].

ومنهم: معاوية بن المغيرة بن أبى العاص بن أمية، وهو الذى جدع أنف حمزة ومثل به فيمن مثل، فلما انهزم يوم أحد دخل على عثمان بن عفان ليجيزه، وكان رسول الله (ص) قد أمر بطلبه فأخرج من دار عثمان وأتى به رسول الله (ص) فوهبه لعثمان، وأقسم لئن وجده بعد ثلاث بالمدينة وما حولها ليقتلن فجهزه عثمان وسار فى اليوم الرابع.

فقال رسول الله (ص): إنَّ معاوية أصبح قريبًا لم ينفذ فاطلبوه واقتلوه، فأصابوه فأخذه زيد بن حارثة وعمار بن ياسر فقتلاه، وقيل: بل قتله على رضى الله عنه[٤٣].

ومعاوية هذا هو أبو عائشة أم عبدالملك بن مروان، فعبد الملك بن مروان أعرق الناس فى الكفر، لأنَّ أحد أبويه الحكم بن أبى العاصى لعين رسول الله (ص) وطريده، والآخر معاوية بن المغيرة.

ومنهم: حمالة الحطب واسمها أم جميل بنت حرب بن أمية كانت تحمل أغصان العضاة والشوك فتطرحها على طريق رسول الله (ص).

قاله الضحاك عن ابن عباس، فقال مجاهد: حمالة النميمة تحطب على ظهرها وإياها عنى الله تعالى بقوله فى سورة المسد: ﴿**تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (١) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ (٢) سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ (٣) وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ (٤) فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ (٥)**﴾.

---

(٤٢) أى حتى جاء عمر.

(٤٣) انظر أحداث غزوة أحد فى سيرة ابن هشام وكتب التاريخ.

قيل: عنى أنَّ فى جيدها سلسلة من نار، أى من سلاسل جهنم، والجيد: العنق، ولما نزلت سورة ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۝ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۝ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۝﴾ .قالت امرأة أبى لهب: قد هجانى محمد والله لأهجونَّه، فقالت: مذممًا قلينا. ودينه أبينا. وأمره عصينا.

وأخذت فهرًا لتضربه به فأعشى الله عينها عنه وردَّها بغيظها، ولم تزل على كفرها حتى هلكت(٤٤).

وما أحد من هؤلاء الذين تقدّم ذكرهم إلا وقد بذل جهده فى عداوة رسول الله (ص) وبالغ فى أذى من اتبعه وآمن به، ونالوا منهم من الشتم وأنواع العذاب حتى فروا منهم مهاجرين إلى بلاد الحبشة، ثم إلى المدينة، وأغلقت أبوابهم بمكة فباع أبو سفيان ابن حرب بعض دورهم وقضى من ثمنها دينًا عليه.

وهموا بقتل رسول الله (ص) غير مرَّة وتناظروا فى أمره ليخرجوه من مكة أو يقيِّدوه ويحبسوه حتى يهلك أو يندبوا لقتله من كلِّ قبيلة رجلاً حتى يتفرَّق دمه فى القبائل.

وبالغ كل أحد منهم فى ذلك بنفسه وما له وأهله وعشريته، ونصب لرسول الله (ص) الحبائل بكل طريق سرًا وجهرًا ليقتله، فلما أذن الله له فى الهجرة وخرج من مكة ومعه صاحبه أبو بكر إلى غار ثور، جعلوا لمن جاء بهما أو قتلهما ديتهما ويقال: جعلوا له مائة بعير، ونادوا بذلك فى أسفل مكة وأعلاها.

كل ذلك حسدًا منهم لرسول الله (ص) وبغيًا ويأبى الله إلا تأييد رسول الله (ص)

---

(٤٤) انظر قصة حمالة الحطب فى سيرة ابن هشام وكتب التفسير. سورة اللهب.

وإعلاء كلمته حتى صدق الله وعده، ونصر عبده، وأعز جنده، وهزم الأحزاب وحده، وظهر أمر الله وهم كارهون - كما ذكرت ذلك ذكرًا شافيًا فى كتاب إمتاع الأسماع بما للرسول من الأنباء والأحوال والحفدة والمتاع (ص) ولله در من قال:

عبد شمس قد أضرمت لبنى ها   شم حربًا يشيب منها الوليد
فابن حرب للمصطفى وابن هند   لعلىَّ وللحسين يزيد

وما الأمر إلا كما قال الأخطل:

إنَّ العداوة تلقاها وإن قدمت
كالعرِّ يكمن أحيانًا وينتشر(٤٥)

﴿ فصل فى ذوي القربى ﴾

وأقول: هذا رسول الله (ص) قد أبعد بنى أمية عنه وأخرجهم من ذوى قرباه - كما خرجه أبو عبدالله محمد بن إسماعيل البخارى فى كتاب فرض الخمس فقال:

«حدَّثنا عبدالله بن يوسف حدَّثنا الليث عن عقيل عن ابن شهاب عن سعيد بن المسيَّب عن جبير بن مطعم قال: مشيت أنا وعثمان بن عفان إلى رسول الله (ص) فقلنا: يارسول الله أعطيت بنى المطَّلب وتركتنا ونحن وهم منك بمنزلة واحدة، فقال رسول الله (ص): إنما بنو المطلب وبنو هاشم شىء واحد».

وقال الليث: حدَّثنى يونس وزاد قال جبير: ولم يقسم النبى (ص) لبنى عبد شمس ولا لبنى نوفل.

---

(٤٥) العر - بفتح العين وضمها: الجرب. والبيت ورد فى الكامل وللمبرد جـ ٣١٠/٢. وانظر ديوان الأخطل.

قال: ابن إسحاق وعبد شمس وهاشم والمطلب إخوة لأم عاتكة بنت مرَّة وكان نوفل أخاهم لأبيهم.

وذكره البخارى فى مناقب قريش أيضًا وقال فى غزوة خيبر: حدَّثنا يحيى بن بكير حدَّثنا الليث عن يونس عن ابن شهاب عن سعيد بن المسيَّب أنَّ جبير بن مطعم أخبره قال: أتيت أنا وعثمان إلى النبى (ص) فقلنا: أعطيت بنى المطَّلب من خمس خيبر وتركتنا، ونحن وهو بمنزلة واحدة منك، فقال: إنما بنو هاشم وبنو المطلب شىء واحد، قال جبير ولم يقسم النبى (ص) لبنى عبد شمس وبنى نوفل شيئًا.

وقد خرج أبو داود هذا الحديث من طريق الزهرى عن سعيد بن المسيب قال: حدثنى جبير بن مطعم أنَّ رسول اللّه (ص) لم يقسم لبنى عبد شمس ولا لبنى نوفل من الخمس، كما قسم لبنى هاشم ولبنى المطلب.

قال: وكان أبو بكر يقسم الخمس نحو قسم رسول اللّه (ص) غير أنَّه لم يكن يعطى قربى رسول اللّه (ص) كما كان يعطيهم رسول اللّه (ص)، وكان عمر يعطيهم ومن كان بعده منه(٤٦).

واعلم أنَّ قوله عن أبى بكر : إنَّه لم يكن يعطى ذوى القربى كما كان النبى (ص) يعطيهم إنَّما هو مما كان (ص) يعود به عليهم من سهمهم، وكانت حاجة المسلمين أيام أبى بكر أشد لا أنَّه منعهم الحق المفروض لهم الذى سماه الله تعالى ورسوله (ص) لهم فقد اعاذه اللّه من ذلك(٤٧).

---

(٤٦) الثابت أن حكم الخمس الذى كان يقسم لذوى القربى وهم بنى هاشم وبنى عبد المطلب قد عطل ولا زال معطلاً. والطائفة الوحيدة التى تعمل به وتطبقه هى الشيعة.

(٤٧) انظر ملحق الكتاب وفيه تعليق على هذا الكلام.

وخرَّج أبو داود من طريق محمد بن إسحاق عن الزهرى عن سعيدبن المسيَّب قال: أخبرنى جبيربن مطعم قال: فلما كان يوم خيبر وضع رسول اللَّه (ص) سهم ذى القربى فى بنى هاشم وبنى المطلب، وترك بنى نوفل وبنى عبد شمس فانطلقت أنا وعثمان بن عفان حتى أتينا رسول اللَّه (ص) فقلنا: يا رسول اللَّه هؤلاء بنو هاشم لا ننكر فضلهم للموضع الذى وضعك اللَّه به منهم فما بال إخواننا بنى المطلب أعطيتهم وتركتنا وقرابتنا واحدة؟

فقال رسول اللَّه (ص): إنّا وبنو المطلب لا نفترق فى جاهلية ولا إسلام وإنّما نحن وهم شيء واحد وشبك بين أصابعه .

وخرّجه إسحاق بن راهويه عن الزهرى عن ابن المسيَّب عن جبير مثل ما تقدّم، وفيه قال: فقسم رسول اللَّه (ص) سهم خمس الخمس من القمح والتمر والنوى .

وقال الحسن بن صالح عن السدى فى ذى القربى: هم بنو عبد المطلب.

وخرج النسائى من حديث سفيان عن قيس بن مسلم قال: سألت الحسن بن محمد عن قوله تعالى:« واعلموا أنَّما غنمتم من شىء فإنَّ لَّله خمسه» قال: هذا مفتاح كلام ولَّله الدنيا والأخرة.

قال: اختلفوا فى هذين السهمين بعد وفاة رسول اللّه (ص): سهم الرسول، وسهم ذى القربى، فقال قائل: سهم الرسول للخليفة من بعده، وقال قائل: سهم ذى القربى لقرابة الرسول، وقال قائل سهم ذى القربى لقرابة الخليفة، فاجتمع رأيهم على أن يجعلوا هذين السهمين فى الخيل والعدة فى سبيل اللّه، فكان ذلك فى خلافة أبى بكر وعمر(٤٨).

---

(٤٨) يشير المقريزى هنا إلى تعطيل حكم الخمس وصرفه فى غير مصارفه الشرعية بتوجيه من الحكام.

وقـد روى عـن بعض طرق ابـن إسـحـاق عن الزهرى عـن ابن المسـيَّب أنَّ عـثـمـان وجبـيـر بن مطعم كلَّمـا رسـول اللّه (ص) فى سـهـم ذى القـربى وقـالا: قسَّمـتـه بين بنى هاشم وبنى المطلب بن عبد مناف ونحن وبنو المطلب إليكم فى النسب سواء.

فقال رسـول اللَّه (ص): «إنّا وهم لما نزل فى الجاهلية شيئاً واحداً وكانوا معنا فى الشعب كذا» وشبك أصابعه.

وكان من حديث الشعب على ما ذكر محمدبن إسحاق وموسى بن عقبة فذكر ابن إسحاق أن النبى (ص) لما مضى على الذى بعث به وقامت بنو هاشم وبنو عبد المطلب دونه، وأبوا أن يسلموه وهم من خلافة على مثل ما قومهم عليه إلا أنهم أنفوا أن يستذلوا ويسلموا أخاهم لمن فارقه من قومه، فلما فعلت ذلك بنو هاشم وبنو المطلب وعرفت قريش ألا سبيل إلى محمد (ص)، معهم أجمعوا على أن يكتبوا فيما بينهم على بنى هاشم وبنى المطلب ألا ينكحوهم ولا ينكحوا إليهم ولا يبايعوهم ولا يبتاعوا منهم وكتبوا صحيفة فى ذلك وعلقوها بالكعبة.

ثم عدوا على من أسلم فأوثقوهم وآذوهم واشتد البلاء عليهم وعظمت الفتنة وزلزلوا زلزالا شديداً.

وقال ابن عقبة: وإجتمعت قريش فى مكرها أن يقتلوا رسول الله (ص) علانية فلما رأى أبو طالب عمل القوم جمع بنى عبد المطلب وأمرهم أن يدخلوا رسول الله (ص) شعبهم ويمنعوه ممن أراد قتله، فاجتمعوا على ذلك مسلمهم وكافرهم، فمنهم من فعله حمية، ومنهم ومن فعله إيماناً ويقيناً.

فلما عرفت قريش أنَّ القوم منعوا رسول اللّه (ص) اجتمع المشركون من قريش وأجمع رأيهم: ألا يجالسوهم، ولا يبايعوهم، ولا يدخلوا بيوتهم حتى يسلموا رسول اللّه (ص) للقتل، وكتبوا فى مكرهم صحيفة وعهودًا ومواثيق: أن لا يقبلوا من بنى هاشم أبدًا صلحًا، ولا تأخذهم بهم رأفة حتى يسلموه للقتل.

فلبث بنو هاشم فى شعبهم ثلاث سنين واشتد عليهم البلاء والجهد وقطعوا عنهم الأسواق فلا تركوا طعامًا يقدم مكة ولا بيعًا إلا بادروهم إليه فاشتروه، يريدون بذلك أن يدركوا سفك دم رسول اللّه (ص)[٤٩].

وذكر ابن إسحاق القصة فى دخولهم الشعب، وما بلغوا من الجهد الشديد حتى كان يسمع أصوات صبيانهم يتضاغون من وراء الشعب من الجوع، حتى كره عامة قريش ما أصابهم وأظهروا كراهتهم لصحيفتهم الظالمة.

قال موسى بن عقبة: فلما كان رأس ثلاث سنين تلاوم رجال من بنى عبد مناف ومن بنى قصى، ورجال سواهم من قريش قد ولدتهم نساء من بنى هاشم، ورأوا أنهم قد قطعوا الرِّحم واستخفوا بالحق، وأجمع أمرهم من ليلتهم على نقض ما تعاهدوا عليه من الغدر والبراءة منه، وبعث اللّه عزَّ وجلَّ على صحيفتهم التى المكر فيها برسول اللّه (ص) الأرضة فلحست كلّ ما كان فيها من عهد وميثاق، فلم تترك اسمًا للّه عر وجل فيها إلا لحسته، وبقى ما كان فيها من شرك أو ظلم أو قطيعة رحم.

وأطلع اللّه عز وجل رسوله (ص) على الذى صنع بصحيفتهم فذكر ذلك رسول اللّه (ص) لأبى طالب فقال أبو طالب: لا والثواقب ما كذبنى، وانطلق يمشى بعصابة من

---

(٤٩) انظر سيرة ابن هشام وهى شرح لسيرة ابن إسحاق.

بنى عبد المطلب حتى أتى المسجد وهو حافل من قريش فلما رأوهم عامدين لجماعتهم أنكروا ذلك وظنوا أنهم خرجوا من البلاء فأتوهم ليعطوهم رسول الله (ص) فتكلم أبو طالب فقال:

قد حدثت أمور بينكم لم نذكرها لكم فأتوا بصحيفتكم التى تعاهدتم عليها فلعلَّه أن يكون بيننا صلح، وإنما قال ذلك خشية أن ينظروا فى الصحيفة قبل أن يأتوا بها فأتوا بصحيفتهم معجبين بها لا يشكون أنَّ الرسول مدفوع إليهم فوضعوها بينهم وقالوا قد آن لكم أن تقبلوا وترجعوا إلى أمر يجمع قومكم فأنما قطعه بيننا وبينكم رجل واحد جعلتموه خطرًا لهلكه قومكم وعشيرتكم وفسادهم.

فقال أبو طالب إنما أتيتكم لأعطيكم أمرًا لكم فيه نصف إنَّ ابن أخى قد أخبرنى فلم يكذبنى أنَّ الله عز وجل برىء من هذه الصحيفة التى فى أيديكم ومحى لكل اسم له فيها وترك فيها غدركم وقطيعتكم إيانا وتظاهركم علينا بالظلم، فإن كان الحديث الذى قال ابن أخى كما قال فأفيقوا فو الله لا نسلمنَّه أبدًا حتى يموت من عند آخرنا، وإن كان قال باطلاً دفعناه إليكم فقتلتم أو استحييتم قالوا قد رضينا بالذى تقول، ففتحوا الصحيفة فوجدوا الصادق المصدوق (ص) قد أخبر خبرها فلما رأتها قريش كالذى قال أبو طالب قالوا: والله إن كان هذا قط إلا سحرًا عن صاحبكم فارتكسوا وعادوا لشر ماكانوا عليه من كفرهم والشدة على رسول الله (ص) والمسلمين والقيام بما تعاهدوا عليه، فقال أولئك النفر من بنى عبدالمطلب: إنَّ أولى بالكذب والسحر غيرنا فكيف ترون وإنا نعلم أنَّ الذى اجتمعتم عليه من قطيعتنا أقرب إلى الجبت والسحر من أمرنا، ولولا أنكم اجتمعتم على السحر لم تفسد صحيفتكم وهى فى أيديكم طمس الله ما فيها من اسم له. وما كان من بغى تركه أفنحن السحرة أم أنتم؟

فقال النفر من بنى عبد مناف وبنى قصى ورجال من قريش ولدتهم نساء من بنى

هاشم منهم أبو البختري والمطعم بن عدى وزهير بن أبى أمية بن المغيرة وزمعة بن الأسود وهشام بن عمرو، وكانت الصحيفة عنده فى رجال من أشرافهم ووجوههم: نحن براء مما فى هذه الصحيفة، فقال أبو جهل: هذا أمر قضى بليل قال موسى بن عقبة: فلما أفسد الله صحيفة مكرهم خرج رسول الله (ص) ورهطه فعاشروا وخالطوا الناس[٥٠].

فانظر رحمك الله كيف لم يجعل رسول الله (ص) القرابة فى النسب وحدها قرابة معتبرة فى أحكام الله عز وجل ما لم تقترن بها القرابة الدينية فإنَّه كما قد رأيت أخرج بنى أمية من ذوى القربى مع كونهم بنى أبيه عبد مناف بن قصى لما كان من عداوتهم له فى دين الله تعالى وتكذيبهم لما جاء به من النبوة والرسالة.

وكيف جعل بنى المطلب بن عبد مناف من ذوى القربى لأجل مسالمتهم له فى الجاهلية وتسرعهم إلى مناصرته ومؤازرته وموالاته ومعاضدته وأنهم لم يربؤوا بأنفسهم عن نفسه بل أمدوه بأنفسهم حيث تخلى عنه الناس ودخلوا معه الشعب مؤمنهم وكافرهم، فالمؤمن دينًا والكافر حمية.

وتأمل ذلك يظهر لك منه فائدتان.

إحداهما: أنَّ العبرة بقرابة الدين لا بقرابة الطين. والثانية: أنَّ مجرد القرابة ليس بشىء وقد قيل أقرب الوسائل المودة وأبعد النسب البغضاء قال:

وأرى القرابة لا تقرب قاطعًا   وأرى المودة أكبر الأسباب

---

(٥٠) انظر المرجعين السابقين وانظر كتب التاريخ.

وقال الأعشى:

ولا تطلبنَّ الود من متباعد ولا تأمنن ذى بغضة إن تقربا
فإنَّ القريب من يقرب نفسه لعمر أبيك الخير لا من تنسبا

فإذًا أقرب الوسائل المودة، وأبعد النسب العقوق، وقد قال تعالى: ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ**﴾ الحجرات: ١٠. فقاربت ولاية الإسلام بين الغرباء.

وقال تعالى: ﴿**إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ**﴾ هود: ١١. فباعد به بين القرابة.

﴿فصل فى استحقاق بنى أمية للخلافة﴾

ثم إنى أقول يا عجبًا كيف يستحق خلافة رسول الله (ص) على أمته شرعًا من لم يجعل له حقًا فى سهم ذى القربى أم كيف يقيم دين الله من قاتل رسول الله (ص)، ونابذه وكايده وبذل جهده فى قتله وليت إذ ولى بنو أمية الخلافة عدلوا وأنصفوا بل جاروا فى الحكم وعسفوا واستأثروا بالفىء كلَّه وحرموه بنى هاشم جملة وزادوا فى العتو والتعدى حتى قالوا إنما ذو القربى قرابة الخليفة منهم وحتى قرروا عند أهل الشام أنه لا قرابة لرسول الله (ص) يرثونه إلا بنى أمية، فلما قام بالأمر أبو العباس عبدالله بن محمد بن على بن عبدالله بن عباس المنعوت بالسفاح، وقتل مروان بن محمد ابن مروان بن الحكم آخر خلائف بنى أمية وأزال دولتهم دخل عليه مشيخة من أهل الشام، فقالوا والله ما علمنا أن لرسول الله (ص) قرابة يرثونه إلا بنى أمية حتى وليتم فقال إبراهيم بن مهاجر:

أيها الناس اسمعوا أخبركم عجبًا زاد على كل عجب
عجبًا من عبد شمس إنَّهم فتحوا للناس أبواب الكذب
ورثوا أحمد فيما زعموا دون عباس وعبدالمطلب
كذبوا والله ما نعلمه يحرز الميراث إلا من قرب

وحتى صعد الحجاج بن يوسف يومًا أعواد منبره وقال على رؤوس الأشهاد: أرسولك أفضل أم خليفتك؟ يعرض بأنَّ عبدالملك بن مروان بن الحكم أفضل من رسول الله (ص) فلما سمعه جبلة بن زحر قال: لله على ألاأصلى خلفه أبدًا وإن رأيت من يجاهده لأجاهدنه معه، فخرج مع عبدالرحمن بن الأشعث وقتل معه.

ولقد اقتدى بعدو الله الحجاج فى كفره ابن شقى الحميرى: فإنه قام بمجلس هشام بن عبدالملك، وقال أمير المؤمنين خليفة الله وهو أكرم على الله من رسوله فأنت خليفة ومحمد رسول الله، وحتى أن يوسف بن عمر عامل هشام قال فى خطبته يوم الجمعة إنَّ أول من فتح على الناس باب الفتنة وسفك الدماء عليَّ وصاحبه الزنيجي يعنى عمار بن ياسر رضى الله عنه، فهذا كما ترى وإلى الله المشتكى.

وقد خرج الحاكم من حديث سفيان عن ابى إسحاق عن عمر وذى مر عن على بن أبى طالب رضى الله عنه فى قوله عز وجل: «**وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ**» [إبراهيم: ٢٨] قال: هما الافجران من قريش بنو أمية وبنو المغيرة، فأما بنو المغيرة فقد قطع الله دابرهم يوم بدر، وأما بنو أمية فمتعوا إلى حين.

قال الحاكم: هذا حديث صحيح.

وسئل على رضى الله عنه عن بنى أمية وبنى هاشم فقال هم أكثر وأنكر وأمكر، ونحن أفصح وأصبح وأسمح.

وقال أبو بكر بن أبى شيبة حدثنا حشرج بن نباتة قال حدثنى سعد بن جمهان قلت لسفينة أن بنى أمية يزعمون أن الخلافة فيهم، فقال كذب بنو الزرقاة بل هم ملوك من أشد أشد الملوك وأول الملوك معاوية.

وما زلت طول الأعوام الكثيرة أعمل فكرى فى هذا وأشباهه التى يطول ذكرها واذاكر به من ادركت من مشيخة العلم ومن لقيت من حملة الآثار ونقلة الأخبار فلا أجد فى طول عمرى سوى رجلين: إما رجل عراه ما عرانى وساءه ماقد دهانى فهو يحذو فى المقال حذوى ويشكو من الألم شكواى.

وإما رجل يرتع فى ميدان تقليده ويجول فى عرصات تهوره وتفنيده، فلا يزيدنى على التهويل والهدر الطويل إلى أن اتضح لى والحمد لله وحده سبب أخذ بنى أمية الخلافة ومنعها بنى هاشم، وذلك أن اعجاز الأمور لا تزال أبدًا تالية لصدورها، وإلا سافل من كل شىء تابعة لأعاليها وكل أمر كان خافيًا إذا انكشف سببه زال التعجب منه، وما بعد على من سبب أخذ بنى أمية الخلافة وتقدمهم فيها على بنى هاشم إلا من أجل الاعراض عن الاعتناء بتعرف أوائل ذلك، وقلة البحث عن غوامضه وإن الشىء لم يوضع فى مواضعه وإنما سلك فيه الكافة إلا قليلاً مذهب التعصب.

﴿فصل فى عمال الرسول (ص) من بنى أمية﴾

والواجب على العاقل بعد معرفة ماخفى من السبب الاذعان والتسليم وترك الاعتراض فماذا بعد الحق إلا الضلال وذلك أنه لا خلاف بين أئمة الحديث ونقاد

الأخبار وعلماء السير والآثار، أن الرسول (ص) توفى وعامله على مكة أبو عبدالرحمن عتاب بن أسيد بن أبى العيص بن أمية بن عبد شمس القرشى الأموى، أحد من أسلم يوم فتح مكة وأنه لم يزل على مكة منذ فتحها الله على رسوله (ص) عام ثمان من الهجرة إلى أن توفاه الله عز وجل فأقر أبو بكر عتابًا حتى ماتا فى يوم واحد.

وكان (ص) قسم اليمن بين خمسة رجال خالد بن سعيد على صنعاء والمهاجر بن أبى أمية على كندة وزياد بن لبيد على حضرموت ومعاد بن جبل على الجند، وأبا موسى الأشعرى على زبيد ورمع وعدن، فكان عامل رسول الله (ص) على صنعاء اليمن كما تقدم خالد بن سعيد بن العاصى بن أمية بن عبد شمس بعثه (ص) إليها سنة عشر من الهجرة، وقد مات باذام ليكون على صدقات اليمن، فتوفى رسول الله (ص) وخالد على اليمن.

وكان أبان بن سعيد بن العاصى بن أمية على البحرين برها وبحرها منذ عزل العلاء بن الحضرمى حليف بنى أمية، وقيل بل مات رسول الله (ص) والعلاء على البحرين وكان عمرو بن سعيد بن العاصى بن أمية على ايماء وخيبر وتبوك وفدك، فلما توفى رسول الله (ص) رجع خالد بن سعيد وأبان وعمرو عن عمالتهم.

فقال أبو بكر ما لكم رجعتم عن عمالتكم ما أحد أحق بالعمل من عمال رسول الله (ص) ارجعوا إلى أعمالكم فقالوا نحن بنو أبى احيحة لا نعمل لأحد بعد رسول الله (ص) أبدًا، ثم مضوا إلى الشام وقاتلوا فقتلوا فى مغازيها، فيقال ما فتحت بالشام كورة من كور الشام إلا وجد عندها رجل من بنى سعيد بن العاصى ميتًا.

وكان أبو سفيان بن حرب بن أمية على نجران فمات رسول الله (ص) وهو عليها

وقيل بل كان على نجران لما توفى رسول الله (ص) وعمرو بن حزم بن زيد بن عمرو بن عبد عوف بن غنم بن مالك بن النجار الأنصارى.

قال الواقدى عن إبراهيم بن جعفر عن أبيه عن عمر بن عبدالعزيز رحمه الله أنه قال توفى رسول الله (ص) وأربعة من بنى أمية عماله عتاب بن اسيد على مكة، وأبان بن سعيد بن العاصى على البحرين وخالد بن سعيد على صنعاء، وأبو سفيان بن حرب على نجران[٥١].

قال الواقدى: اصحابنا مجمعون على أن رسول الله (ص) قبض وأبو سفيان حاضر.

وقال ابن الكلبى: كان أبو سفيان غائبًا فلما قدم قال: كيف رضيتم يا بنى عبد مناف أن يلى أمركم غيركم وقوم يقولون أن رسول الله (ص) ولى أبا سفيان صدقات خولان ونخلة وولى يزيد بن أبى سفيان على نجران والله أعلم.

وكان على جرش سعيد بن القشب الأزدى حليف بنى أمية، فمات رسول الله (ص) وهو عليها وكان المهاجرين أمية بن المغيرة بن عبدالله بن مخزوم المخزومى أخو أم سلمة أم المؤمنين رضى الله عنها على صدقات كندة والصدف، ثم ولاه أبو بكر اليمن.

وكان عمرو بن العاصى بن وائل بن هاشم بن سعيد بن سهم السهمى حين وفاة

---

(٥١) انظر التعليق على هذا الكلام فى الملحق. والواقدى هو محمد بن عمر بن واقد الأسلمى ولى قضاء بغداد له المغازى والسير توفى عام ٢٠٧هـ.

رسول الله (ص) على عمان بعدما بعثه النبى (ص) على سرية نحو الشام إلى اخوال أبيه العاصى بن وائل من بلى يدعوهم إلى الإسلام ويستنفرهم إلى الجهاد، ثم أمده رسول الله (ص) بجيش فيه أبو بكر وعمر وأبو عبيدة بن الجراح رضى الله عنهم فصلوا خلفه(٥٢).

ثم عمل عمرو بن العاصى بعد رسول الله (ص) لعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان، وكان على الطائف عثمان بن أبى العاصى بن بشر بن عبد دهمان الثقفى ومات رسول الله (ص) وهو عليها.

فإذا كان رسول الله قد أسس هذا الأساس وأظهر بنى أمية لجميع الناس بتوليتهم أعماله فيما فتح الله عليه من البلاد كيف لا يقوى ظنهم ولا ينبسط رجاؤهم ولا يتحد فى الولاية أملهم؟.

أم كيف لا يضعف أمل بنى هاشم وينقبض رجاؤهم ويقصر أملهم وكبيراهم العباس بن عبدالمطلب وابن أخيه على بن أبى طالب رضى الله عنهما يريد أحدهما استعلام رسول الله (ص) فى مرض موته عن هذا الأمر هل هو فيهم أم فى غيرهم ويأبى الأخر ذلك.

كما أخرج البخارى من حديث الزهرى قال أخبرنى عبدالله بن كعب بن مالك الأنصارى أن عبدالله بن عباس آخبره أن على بن أبى طالب رضى الله عنه خرج من عند رسول الله (ص) فى وجعه الذى توفى فيه، فقال الناس يا أبا الحسن كيف أصبح -

---

(٥٢) الغزوة المشار إليها هنا هى غزوة ذات السلاسل. انظر سيرة ابن هشام والبخارى كتاب الفضائل باب فضائل أبى بكر وشرح الحديث فى فتح البارى جـ ٧.

رسول الله (ص) قال أصبح بحمد الله بارئًا فأخذ بيده عباس بن عبدالمطلب رضى الله عنه فقال له أنت والله بعد ثلاث عبد العصا وأنى والله لأرى رسول الله (ص) يتوفى من وجعه هذا وإنى لا أعرف وجوه بنى عبدالمطلب عند الموت اذهب بنا إلى رسول الله (ص) فلنسأله فى هذا الأمر إن كان فينا علمنا ذلك وإن كان فى غيرنا علمناه فأوصى بنا، فقال على إنا والله لئن سألناها رسول الله (ص) فمنعناها لا يعطيناها الناس بعده وإنى والله لا أسألها من رسول الله (ص)[٥٣].

ورواه محمد بن إسحاق عن الزهرى إلا أنه لم يذكر ما قال فى العصا، وزاد فى آخره فتوفى رسول الله (ص) حين اشتد الضحى من ذلك اليوم.

وفى رواية: وخلا العباس بعلى، فقال له: هل تعلم أن رسول الله (ص) أوصى إلى غيرك بشىء؟ فقال على: اللهم لا، فخرج العباس على بغلة له حتى أتى عسكر أسامة بن زيد فلقى أبا بكر وعمر وغيرهما، فقال: هل أوصاكم رسول الله (ص) بشىء قالوا: لا، فرجع إلى على فقال: إن رسول الله (ص) مقبوض فامدد يدك أبايعك، فيقال عم رسول الله (ص) بايع ابن عم رسول الله ويبايعك أهل بيتك فإن مثل هذا الأمر لا يؤخر فقال: يرحمك الله ومن يطلب هذا الأمر غيرنا يا عم؟

وفى رواية أن العباس قال لعلى هلم يدك أبايعك، فقال إن لى برسول الله شغلاً ومن ذاك الذى ينازعنا هذا الأمر؟

ورواية البخارى وعبدالرزاق أثبت، وقال ابن سعد أخبرنا محمد بن عمر حدثنى محمد بن عبدالله بن أخى الزهرى، قال سمعت عبدالله بن حسن يحدث عمى الزهرى

---

(٥٣) انظر كتب التاريخ فترة وفاة النبى (ص) وسيرة ابن هشام.

يقول حدثتنى فاطمة بنت الحسين قالت لما توفى رسول الله (ص) قال العباس يا على قم حتى ابايعك ومن حضر فإن هذا الأمر إذا كان لم يرد مثله، والأمر فى أيدينا.

فقال على وأحد يطمع فيه غيرنا.

فقال العباس، أظن والله سيكون.

فلما بويع لأبى بكر ورجعوا إلى المسجد سمع على التكبير. فقال: ما هذا؟ فقال العباس هذا ما دعوتك إليه فابيت على؟ فقال على: أيكون هذا؟ فقال العباس مارد مثل هذا قط.

فقال محمد بن عمر الواقدى قد خرج أبو بكر من عند النبى (ص) حين توفى وتخلف عنده على والعباس والزبير، فذلك حين قال العباس هذه المقالة، وأخرجه عبدالرزاق عن معمر عن الزهرى بمعناه، قال عبدالرزاق وكان معمر يقول لنا أيهما كان أصوب عندكم رأيًا فنقول: العباس فيأبى ثم قال: لو أن عليًا سأله عنها فأعطاه إياها فمنعه الناس كانوا قد كفروا.

قال عبدالرزاق فحدثت به ابن عيينة فقال: قال الشعبى لو أن عليًا سأله عنها كان خيرًا له من ماله وولده.

وروى إسماعيل بن خالد عن الشعبى قال: قال العباس لعلى رضى الله عنهما حين مرض النبى (ص) إنى أكاد أعرف فى وجه رسول الله (ص) الموت فانطلق بنا إليه نسأله من يستخلف فإن استخلف منا فذاك وإلا أوصى بنا، فقال على للعباس: كلمة

فيها جفاء فلما قبض النبى (ص) قال العباس لعلى: ابسط يدك فلنبايعك فقبض يده قال الشعبى لو أن عليًا أطاع العباس كان خير له من حمر النعم(٥٤).

﴿فصل فيما ورد فى بنى أمية﴾

وقد رويت مع هذا الحديث أحاديث أخرى إن كانت صحيحة فلا سبيل إلى ردها وإن كانت مفتعلة فقد صارت داعية إلى الأمر الذى وقع النزاع فيه وطال الخصام عليه.

منها ما رواه ابن الكلبى عن الحكم بن هشام الثقفى قال مات عبيدالله بن جحش عن أم حبيبة بنت أبى سفيان وكانت معه بأرض الحبشة فخطبها (ص) إلى النجاشى فدعا بالقريشين، فقال: من أولاكم بأمر هذه المرأة؟

فقال خالد بن سعيد بن العاصى أنا أولاهم بها قال فزوج نبيكم، قال فزوجه ومهر عنه النجاشى أربعمائة دينار، فكانت أول امرأة مهرت أربعمائة دينار وحملت إلى النبى (ص) ومعها الحكم بن أبى العاص فجعل النبى (ص) يكثر النظر إليه.

فقيل يا رسول الله إنك لتكثر النظر إلى هذا الشاب.

فقال إليس ابن المخزومية؟

قالوا: بلى.

قال: إذا بلغ بنو هذا أربعين رجلاً كان الأمر فيهم(٥٥).

وكان مروان بن الحكم إذا جرى بينه وبين معاوية بن أبى سفيان كلام قال لمعاوية إنى والله لأبو عشرة وأخو عشرة وعم عشرة وما بقى إلا عشرة حتى يكون الأمر فى، فيقول معاوية أخذها والله من عين صافية فهذا الحديث كما تسمع.

---

(٥٤) انظر تطهير الجنان واللسان.

(٥٥) رواه البزار: إذا بلغ بنو أبى العاص ثلاثين رجلاً.

وقد روى أبو بكر بن أبى شيبة من حديث عبدالله بن عمير، قال: قال معاوية ما زلت أطمع فى الخلافة مذ قال رسول الله (ص) إن ملكت يا معاوية فأحسن(٥٦).

قال وكيع عن الأعمش عن أبى صالح قال: كان الحادى يحدو بعثمان رضى الله عنه ويقول:

إن الأمير بعده على   وفى الزبير خلف رضى

فقال كعب الأحبار بل هو صاحب البغلة الشهباء يعنى معاوية فبلغ ذلك معاوية فأتاه، فقال يا أبا إسحاق ما تقول هذا وها هنا على والزبير وأصحاب محمد (ص) قال أنت صاحبها.

وقد جاء من طرق عن أبى هريرة أن رسول الله (ص) قال: «رأيت فى النوم بنى الحكم أو بنى أبى العاص ينزون على منبرى كما تنزوا القردة» قال: فما رؤى النبى (ص) مستجمعًا ضاحكًا حتى توفى(٥٧).

وعن سعيد بن المسيب قال: رأى النبى (ص) بنى أمية على منابرهم فساءه ذلك فأوحى إليه إنما هى دنيا اعطوها فقرت عينه وهى قوله تعالى: «**وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلنَّاسِ**» [الإسراء: ٦٠].

يعنى بلاء للناس وقد روى أن رجلاً قام إلى الحسن بن على رضى الله عنهما فقال

---

(٥٦) انظر الإصابة ترجمة معاوية.

(٥٧) انظر تطهير اللسان.

(يامسود وجوه المؤمنين) فقال: لا تؤنبنى رحمك الله فإن رسول الله (ص) قد رأى بنى أمية يخطبون على منبره رجلاً رجلاً فساءه ذلك فنزلت ﴿**إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ**﴾ - والكوثر نهر فى الجنة - ونزلت ﴿**إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ**﴾ يعنى تملك بنى أمية فحسب ذلك فإذا هو لا يزيد ولا ينقص.

وعن أبى هريرة وأبى سعيد الخدرى أن رسول الله (ص) قال إذا بلغ بنو أبى العاصى أربعين رجلاً اتخذوا دين الله دغلاً وعباد الله خولا ومال الله دولاً.

قال الزبير بن بكار قال عمى مصعب عن عبدالله بن محمد بن يحيى بن عروة بن الزبير أو غير عبدالله وحدثيه محمد بن الضحاك الحزامى عن أبيه أن عمرو بن عثمان بن عفان اشتكى وكان العواد يدخلون عليه فيخرجون وتخلف مروان بن الحكم عنده فيطيل فانكرت رملة بنت معاوية ذلك وهى امرأة عمرو بن عثمان فخرقت كوة واستمعت على مروان فإذا هو يقول لعمرو ما أخذ هؤلاء الخلافة إلا باسم أبيك فما يمنعك أن تنهض بحقك فنحن أكثر منهم رجالاً منا فلان ومنهم فلان ومنا فلان ومنهم فلان حتى عدد رجالاً، ثم قال ومنا فلان وهو فضل وفلان وهو فضل حتى يعدد فضول رجال بنى أبى العاص على بنى حرب فلما برأ عمرو تجهز للحج وتجهزت رملة فى جهازه، فلما خرج عمرو إلى الحج خرجت رملة إلى أبيها فقدمت عليه الشام فقال لها معاوية واسوأتاه وما للحرة تطلق طلقك عمرو فأخبرته الخبر وقالت وما زال يعد فضل رجال بنى أبى العاص على بنى حرب حتى إبنى عثمان وخالد بن عمرو فتمنيت أنهما ماتا فكتب معاوية إلى مروان بن الحكم:

أواضع رجل فوق أخرى تعدنا   عديد الحصى ما أن تزال تكاثر
وامكم تزجى توأمًا لبعلها   وأم أخيكم نزرة الولد عاقر

وأشهد يا مروان أنى سمعت رسول الله (ص) يقول: إذا بلغ ولد الحكم ثلاثين رجلاً اتخذوا مال الله دولاً ودين الله دخلاً وعباد الله خولاً فكتب إليه مروان، أما بعد يا معاوية فإنى أبو عشرة وعم عشرة والسلام.

وروى عن معاوية أنه قال لعبدالله بن عباس رضى الله عنهما انشدك الله يابن عباس أما تعلم أن رسول الله (ص) ذكر هذا - يعنى مروان بن الحكم - فقال أبو الجبابرة الأربعة فقال ابن عباس اللهم نعم.

﴿فصل الخلفاء وبنى أمية﴾

وقد اقتدى برسول الله (ص) فى ولاية الأعمال أبو بكر فإنه لما استخلف بعد رسول الله (ص) وارتدت العرب قطع البعوث وعقد أحد عشر لواء على أحد عشر جندًا فعقد لخالد بن الوليد المخزومى وبعثه لقتال طليحة بن خويلد الأسدى ثم مالك بن نويرة وعقد لعكرمة بن أبى جهل المخزومى وبعثه لقتال مسليمة بن ثمامة بن المطوح بن ربيعة الحارث وعقد للمهاجر بن أبى أمية المخزومى وبعثه لقتال جنود الأسود بن كعب ابن عوف العنسى ومعونة الأبناء على قيس بن المكشوح.

وعقد لخالد بن سعيد العاصى بن أمية وبعثه إلى مشارف الشام.

وعقد إلى عمرو بن العاص وبعثه إلى قضاعة وعقد لحذيفة بن محصن العلقانى من علقان بن شرحيل بن عمرو بن مالك بن يزيد ذى الكلاح وبعثه إلى أهل دبا، وهى مدينة قديمة من مدن عمان.

وعقد لعرفجة بن هرثمة وبعثه إلى مهرة وبعث شرحبيل بن حسنة فى أثر عكرمة ابن أبى جهل فإذا فرغ من اليمامة لحق قضاعة.

وعقد لطريفة بن حاجم وبعثه إلى بنى سليم ومن معهم من هوزان وعقد لسويد ابن مقرن بن عائذ المزنى، وبعثه إلى تهامة اليمن.

وعقد للعلاء بن الحضرمى وبعثه إلى البحرين فلحق كل أمير بجنده حتى انقضت حروب الردة، فبعث أبو بكر خالد بن الوليد لفتح العراق وأردفه بغيلان ابن غنيم بن زهير بن أبى شداد بن ربيعة هلال بن وهيب الفهرى وأمدهما بالقعقاع بن عمرو وجهز الجنود إلى الشام فبعث خالد بن سعيد بن العاصى وأردفه بذى الكلاع وعكرمة بن أبى جهل وعمرو بن العاصى والوليد بن عقبة وعقد ليزيد بن أبى سفيان بن حرب على جيش عظيم هو جمهور من انتدب إليه وجهزه عوضًا عن خالد بن الوليد.

وعقد لأبى عبيدة بن الجراح وبعثه إلى حمص، وأمد يزيد بن أبى سفيان بأخيه معاوية بن أبى سفيان ومعه جيش فنزل أبو عبيدة الجابية، ونزل يزيد البلقاء، ونزل شرحبيل بن حسنة الأردن، وقيل بصرى، ونزل عمرو بن العاص القريات.

ولما مات أبو بكر واستخلف من بعده عمرو بن الخطاب كانت عماله على مكة نافع بن عبدالحارث الخزاعى، وعلى الطائف عثمان بن أبى العاص بن أمية، ثم سفيان بن أبى عبدالله الثقفى، وعلى اليمن يعلى بن منبه، وعلى عمان واليمامة حذيفة بن محصن، وعلى البحرين العلاء بن الحضرمى، ثم عثمان بن أبى العاص، وعلى الكوفة سعد بن أبى وقاص، ثم المغيرة بن شعبة، ثم عمار بن ياسر، ثم أبو موسى الأشعرى وعلى البصرة المغيرة بن شعبة، ثم أبو موسى الأشعرى، وعلى الشام أبو عبيدة بن الجراح، ثم يزيد بن أبى سفيان، ثم معاوية بن أبى سفيان وعلى الجزيرة عياض بن غنم وعلى مصر عمرو بن العاص.

فانظر كيف لم يكن فى عمال رسول اللّه (ص) ولا فى عمال أبى بكر وعمر أحد من بنى هاشم فهذا وشبهه هو الذى حدد أنياب بنى أمية وفتح أبوابهم وأترع كاسهم وفتل أمراسهم حتى لقد وقف أبو سفيان بن حرب على قبر حمزة رضى اللّه عنه فقال رحمك اللّه أبا عمارة لقد قاتلتنا على أمر صار إلينا(٥٨).

وروى أن الأمر لما أفضى إلى عثمان بن عفان أتى أبو سفيان قبر حمزة فركله برجله، ثم قال: يا حمزة إنَّ الأمر الذى كنت تقاتلنا عليه بالأمس قد ملكناه اليوم وكنا أحق به من تيم وعدى.

قال كاتبه: وما هى إلا الدنيا وإنَّ الدين لعارض فيها والعاجلة محبوبة، وبهذا ارتفعت رؤوس وضعفت نفوس فإن دلائل الأمور تسبق وتباشير الخير تعرف وللّه فى خلقه قضاء يمضيه ويأبى اللّه أن يتم شىء من أمر الدنيا إلا ويعتريه النقص.

﴿فصل اختصاص بنى هاشم﴾

لما كانت بنو هاشم من قريش اختصها اللّه سبحانه بهذا الأمر أعنى الدعوة إلى اللّه تعالى والنبوة والكتاب فحازت بذلك الشرف الباقى وكانت أحوال الدنيا من الخلافة والملك ونحوه زائلة لهذا أزواها اللّه تعالى عنهم تنبيهًا على شرفهم وعلو مقدارهم فإن ذلك هو خيرة اللّه لنبيه محمد (ص) كما ثبت أنه (ص) لما خير أختار أن يكون نبيًا عبدًا ولم يختر أن يكون نبيًا ملكًا، وسأل مثل ذلك لآله كما ثبت فى الصحيحين وغيرهما من حديث عمارة عن أبى زرعة عن أبى هريرة قال: قال رسول اللّه (ص) اللهم اجعل رزق آل محمد قوتًا.

وروى أبو عيسى الترمذى حديث عبيداللّه بن زحر عن على بن يزيد عن القاسم أبى عبد الرحمن عن أبى أمامة عن النبى (ص) قال: عرض على ربى ليجعل لى بطحاء

---

(٥٨) انظر التعليق على هذا الكلام فى الملحق.

مكة ذهبًا قلت لا يارب ولكن اشبع يومًا وأجوع يومًا، أو قال ثلاثًا، أو نحو هذا فإذا جعت تضرعت إليك وذكرتك وإذا شبعت شكرتك وحمدتك، وقال الترمذى: هذا حديث حسن.

وأخرج البخارى من حديث ابن أبى ليلى حدثنا على رضى الله عنه أن فاطمة عليها السلام اشتكت ما تلقى من الرحى مما تطحن فبلغها أن رسول الله (ص) أتى بسبى فاتته تسأله خادمًا فلم توافه فذكرت لعائشة فجاء النبى (ص) فذكرت ذلك عائشة له فأتانا وقد دخلنا مضاجعنا فذهبنا لنقوم، فقال على مكانكما فقعد بيننا حتى وجدت برد قدميه على صدرى فقال ألا ادلكما على خير مما سألتما إذا أخذتما مضاجعكما، فكبرا أربعًا وثلاثين وأحمدا ثلاثًا وثلاثين وسبحا ثلاثًا وثلاثين فإن ذلك خير لكما مما سألتما.

وأخرجه مسلم أيضًا ولأبى داود من حديث أبى الورد عن على بن أعبد قال: قال لى على رضى الله عنه ألا أحدثك عنى وعن فاطمة بنت رسول الله (ص) وكانت من أحب أهله إليه، قلت بلى، قال فإنها جرت بالرحى حتى أثر فى يدها واستقت بالقربة حتى أثر فى نحرها وكنست البيت حتى أغبرت ثيابها فأتى النبى (ص) خدم فقلت لو اتيت أباك فسألتيه خادمًا؟ فأتته فوجدت عنده حداثًا فرجعت فأتاها من الغد فقال: ماكان حاجتك فسكنت فقلت: أنا أحدثك يا رسول الله جرت الرحى حتى أثرت فى يدها، وحملت القربة حتى أثرت فى نحرها فلما أن جاء الخدم أمرتها أن تأتيك فتستخدمك خادمًا تقيها حر ما هى فيه، فقال اتقى الله يا فاطمة وأدى فريضة ربك واعملى عمل أهلك. فإذا أخذت مضجعك فسبحى ثلاثًا وثلاثين، واحمدى ثلاثًا وثلاثين، وكبرى أربعًا وثلاثين، فهى خير لك من خادم. قالت رضيت عن الله وعن رسوله.

وفى البخارى ومسلم وغيرهما من حديث عامر بن سعد عن أبيه عن النبى (ص) أنه قال: إنى لأعطى الرجل وغيره أحب إلى منه خشية أن يكب فى النار على وجهه.

وفى رواية: فو الله إنى لأعطى الرجل وأدع الرجل والذى أدع أحب إلى من الذى أعطى ولكنى أعطى أقوامًا لما أرى فى قلوبهم من الجزع والهلع فأكل أقوامًا إلى ما جعل الله فى قلوبهم من الغنى والخير ومن حديث أنس بن مالك عن النبى (ص) (أنه قال) فإنى أعطى رجالاً حديثى عهد بكفر اتألفهم.

وروى ابن وهب من عمرو بن الحارث أن بكر بن سوادة حدثه أن أبا سالم الجيشانى حدثه عن أبى ذر أن رسول الله (ص) قال له: كيف ترى جعيلاً - جعيل بن سراقه؟

قال: قلت كشكله من الناس قال: فكيف ترى فلانًا قلت سيدًا من سادات الناس، قال: فجعيل خير من ملء الأرض ذهبًا أو ألفًا ونحو ذلك من فلان، قال: قلت يا رسول الله ففلان هكذا وأنت تصنع به ما تصنع قال إنه رأس قومه وأنا اتألفهم به.

قال جامعه وهذا على بن إبى طالب رضى الله عنه كان يعلم أن رسول الله (ص) يربأ ببنى هاشم من ولاية الأعمال كما ثبت فى مسلم وغيره من حديث مالك عن أبى شهاب أن عبدالله بن نوفل بن الحارث بن عبدالمطلب حدثه أن عبدالمطلب بن ربيعة بن الحارث حدثه.

قال: اجتمع ربيعة بن الحارث والعباس بن عبدالمطلب فقالا والله لو بعثنا هذين الغلامين (قال لى وللفضل بن العباس) إلى رسول الله (ص) فكلماه فأمرهما على هذه الصدقات فأديا ما يؤدى الناس وأصابا مما يصيب الناس.

قال فبيناهما فى ذلك جاء على بن أبى طالب رضى الله عنه فوقف عليهما فذكر له ذلك، فقال لا تفعلا فو الله ماهو بفاعل فانتحاه ربيعة بن الحارث، فقال: والله ما تصنع هذا إلا نفاسة منك علينا فو الله لقد نلت صهر رسول الله (ص) فما نفسناه عليك.

قال على: أرسلوهما، فانطلقا واضطجع.

فلما صلى رسول الله (ص) الظهر سبقناه إلى الحجرة فقمنا عندها حتى جاء فأخذ بآذاننا ثم قال: أخرجا ما تسران، ثم دخل ودخلنا عليه وهو يومئذ عند زينب بنت جحش.

قال: فتواكلنا الكلام، ثم تكلم احدنا، فقال: يا رسول الله أنت أبر الناس وأوصل الناس وقد بلغنا النكاح - أى الحلم - فجئنا لتؤمّرنا على بعض هذه الصدقات فنؤدى إليك كما يؤدى الناس، ونصيب كما يصيبون.

فسكت طويلاً حتى اردنا أن نكلمه وجعلت زينب تلمع إلينا من وراء الحجاب أن لا تكلماه.

قال ثم قال إن الصدقة لا تنبغى لآل محمد إنما هى أوساخ الناس أدعو إلي محمية وكان على الخمس ونوفل بن الحارث بن عبدالمطلب فجاءا، فقال لمحمية أنكح هذا الغلام ابنتك للفضل بن العباس فأنكحه.

وقال لنوفل بن الحارث أنكح هذا الغلام ابنتك لى فانكحنى.

وقال لمحمية اصدق عنهما من الخمس كذا وكذا.

فهذا أعزك الله وإن كان إنما فيه منع بنى هاشم من تناول الصدقة لأنها محرمة عليهم فإن رسول الله (ص) إنما كانت أعماله التى يستعمل عليها عماله على قسمين: إما للحرب أو على الصدقات فمنع رسول الله (ص) بنى هاشم من العمل على الصدقة بنصيب العامل وهو الصحيح أنهم لا يستعملون عليها تنزيهًا لهم ولبنى المطلب عن أوساخ الناس لكرامتهم.

وقد كان غير واحد من فضلاء الصحابة رضى الله عنهم يعلمون أن آل البيت أرفع قدرًا عند الله من أن يبتليهم بأعمال الدنيا منهم عبدالله بن عمر بن الخطاب لما خرج الحسين بن على رضى الله عنهما يريد العراق وقد كتبت إليه شيعته وحثوه على مسيره إليهم ليقوم بأمر الأمة بدل يزيد بن معاوية لحقه عبدالله على مسيرة ليلتين، وقال: أين تريد؟

قال: العراق.

قال لاتأتهم.

قال: هذه كتبهم وبيعتهم.

فقال إن الله عز وجل خير نبيه (ص) بين الآخرة والدنيا فاختار الآخرة ولم يرد الدنيا وإنك بضعة من رسول الله (ص) والله لا يليها أحد منكم وما صرفها الله عنكم إلا للذى هو خير لكم فارجع.

فأبى الحسين وقال هذه كتبهم وبيعتهم.

فأعتنقه عبدالله بن عمر وقال استودعك الله من قتيل فكان كما قال ابن عمر[٥٩].

---

(٥٩) مثل هذه الرواية المشهورة فى كتب التاريخ تريد التأكيد على أن الحسين خرج طلبًا للحكم والإمارة ولم يكن الأمر كذلك فما قام به الحسين هو ثورة كان الهدف منها إعادة الصورة الحقيقية للإسلام وتثبيته على ساحة الواقع بعد أن شوهه معاوية وولده وعزلوه عن الواقع وعزلوا المسلمين عنه. انظر الملحق.

وكذلك قال عبدالله بن عباس رضى الله عنهما للحسين، والله يا ابن أخى ماكان الله ليجمع لكم بين النبوة والخلافة وهذا من فقههما.

وقد أشار الحسن بن على رضى الله عنهما إلى ذلك فى خطبته لما ترك الخلافة التى صارت إليه بعد أبيه وتنزه عنها وترفع عن منازعة معاوية فلما دخل معاوية الكوفة أشار عليه عمرو بن العاصى أن يأمر الحسن فيخطب الناس ظنًا منه أنه يعيا فخطب معاوية، ثم أشار إلى الحسن أن يخطب فقام فحمد الله.

ثم قال: (أيها الناس إن الله هداكم بأولنا وحقن دماءكم بآخرنا وإن لهذا الأمر مدة والدنيا دول وإن الله عز وجل قال لنبيه (ص) «**وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ** » [الأنبياء: ١١١] فلما قالها قال معاوية أجلس وحقدها على عمرو، وقال: هذا من رأيك فصدق الحسن فيما قاله.

«فصل فى خروج الخلافة»

ذهب بعضهم إلى أن السر فى خروج الخلافة بعد رسول الله (ص) عن على بن أبى طالب إلى أبى بكر وعمر ثم عثمان أن عليًا لو ولى الخلافة حينئذ وهو أبو الحسنين لأوشك أن يقول قائل ويتخيل متخيل أنه ملك متوارث لا يكون إلا فى أهل البيت كما تزعمه الرافضة فصان الله العقائد من هذه الشبهة كما صانها من شبهة قول القائل عن النبى (ص) هو رجل يطلب ملك أبيه وهو معنى حسن ولهذا السر جعل (ص) الخلافة لعامة قريش ولم يختص بها أهل بيته بل ولا بنى هاشم حتى لا يتخيل أنه ملك متوارث والله أعلم(٦٠).

---

(٦٠) انظر التعليق على هذا الكلام فى الملحق.

وقد ظهر لى أن ولاية رسول الله (ص) بنى أمية الأعمال كانت إشارة منه (ص) إلى أن الأمر سيصير إليهم ولى بحمد الله فى هذا النحو خير سلف وأجل قدوة منهم سعيد بن المسيب رحمه الله.

قد ثبت فى البخارى ومسلم من حديث أبى موسى الأشعرى فى حديث جلوس رسول الله (ص) على بئر اريس ودخول أبى بكر وعمر وجلوسهما عن يمينه وشماله معه (ص) فى القب ودخول عثمان بن عفان وجلوسه تجاههم من الشق الآخر وأن سعيد بن المسيب قال فتأولت ذلك قبورهم اجتمعت ها هنا وانفرد قبر عثمان، وثبت من حديث جابر بن عبدالله أن رسول الله (ص) نحر فى حجته التى يقال لها حجة الوداع ثلاثًا وستين بدنة فكان فى نحره هذا العدد من البدن إشارة إلى أن مدة حياته (ص) ثلاث وستون سنة.

وثبت من حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أن رسول الله قال: إن أأمن الناس على فى صحبته وماله وأبو بكر ولو كنت متخذًا خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً إلا خلة الإسلام لا تبقين فى المسجد خوخة إلا خوخة أبى بكر(٦١).

فكان أمر رسول الله (ص) بإبقاء خوخة أبى بكر رضى الله عنه فى المسجد مع منع الناس كلهم من ذلك إشارة ودليل على خلافته بعد رسول الله (ص) وأن ذلك من رسول الله (ص) تنبيهًا للناس بأن أبا بكر يصير إمام المسلمين ويخرج من بيته إلى المسجد كما كان رسول الله (ص) يخرج.

---

(٦١) انظر البخارى ومسلم باب فضل أبى بكر. وحديث خوخة أبو بكر مردود بأحاديث أخرى لصالح خوخة على. انظر الترمذى كتاب المناقب ومجمع الزوائد للهيثمى جـ ١١٤/٩ ومسند أحمد.

ذكره ابن بطال وقد جعل جمهور الصحابة استخلاف رسول الله (ص) أبا بكر فى الصلاة وهو مريض دليلاً وإشارة إلى أنه الخليفة من بعد رسول الله (ص)، وقالوا: قد رضيه رسول الله (ص) لديننا، أفلا نرضاه لدنيانا(٦٢)؟

وثبت فى الصحيح من حديث سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله عنه قال: كان عمر يدخلنى مع اشياخ بدر، فقال بعضهم لم تدخل هذا الفتى معنا ولنا ابناء مثله، فقال إنه ممن قد علمتهم.

قال: فدعاهم ذات يوم ودعانى معهم وما رأيته دعانى يومئذ إلا ليريهم منى.

فقال: ماتقولون فى «**إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا**» حتى ختم السورة، فقال بعضهم امرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا.

وقال بعضهم لا ندرى أو لم يقل شيئًا.

فقال لى يا ابن عباس أكذا هو؟

قلت: لا.

قال: فما تقول؟

قلت: هو أجل رسول الله (ص) اعلمه الله له يقول إذا جاء نصر الله والفتح، فتح مكة فذلك علامة اجلك فسبح بحمد ربك واستغفره أنه كان توابا.

قال عمر: ما أعلم منها إلا ما تعلم، فهذا فهم الصحابة والتابعين وهم القدوة وبهم الأسوة. وفقنا الله لاتباعهم.

---

(٦٢) هذا الكلام من استنتاجات بعض الفقهاء والمؤرخين وليس محل إجماع.

«فصل فى بنى العباس»

إياك والاعتراض على ما تقدم بأخذ بنى العباس بن عبدالمطلب بن هاشم الخلافة وأنهم أقاموا خلفاء نيفًا على خمسمائة وعشرين سنة فإن الخلافة إنما صارت إليهم بعدما ضعف أمر الدين وتخلخلت أركانه وتداول الناس أمر الأمة بالغلبة فأخذها حينئذ بنو العباس بأيدى عجم أهل خراسان ونالوها بالقوة ومناهضة الدول ومشاورة الملوك حتى أزالوا بعجم خراسان دولة بنى أمية وتناولوا العز كيف كان فما وصل أمر الأمة إلى أهل العدالة والطهارة ولا وليهم ذوو الزهادة والعبادة ولا ساسهم أرباب الورع والأمانة بل استحالت الخلافة كسروية وقيصرية بحيث أن إبراهيم الإمام ابن محمد بن على بن عبدالله بن عباس لما وجه أبا مسلم الخراسانى إلى دعاته بخراسان ووصاهم أن يسمعوا له ويطيعوا، قال له انك رجل منا أهل البيت احفظ وصيتى انظر هذا الحى من اليمن فأكرمهم واسكن بين اظهرهم فإن الله لا يتم الأمر إلا بهم واتهم ربيعة فى أمرهم وأما مضر فإنهم العدو القريب الدار واقتل من شككت فيه، وإن استطعت أن لا تدع بخراسان من يتكلم بالعربية فافعل، وأيما غلام بلغ خمسة أشبار تتهمه فاقتله(٦٣).

فأين اعزك الله هذه الوصية من وصايا الخلفاء الراشدين لعمالهم.

وتالله لو توجه أبو مسلم إلى أرض الحرب ليغزو أهل الشرك بالله لما جاز أن يوصى بهذا، فكيف وإنما توجه إلى دار الإسلام وقتال أبناء المهاجرين والأنصار وغيرهم من العرب لينتزع من أيديهم ما فتحه آباؤهم من أرض الشرك ليتخذ مال الله دولاً وعبيده خولاً فعمل أبو مسلم بوصية إبراهيم الإمام حتى غلب على ممالك خراسان وتخطت عساكره إلى العراق فيقال إنه قتل ستمائة ألف إنسان وسار فى الناس بالعسف والجبرية.

---

(٦٣) انظر هذه الوصية فى تاريخ اليعقوبى جـ ٢٦٢/٢. وانظر حوادث عام ١٢٩هـ ومابعدها فى كتب التاريخ.

فمن سيء سيرته إنه لما قوى أمره وصار فى عسكر ودخل مرو فى شهر ربيع الأول سنة ثلاثين ومائة واستولى عليها اراد الغدر بنصر بن سيار وقد آنسه وبسطه وضمن له أن يكف عنه ويقوم بشأنه عند الإمام.

فبعث مع لاهز بن قريط وسليمان بن كثير وعمران بن إسماعيل وداود بن كراز يعلمه أن كتابًا أتاه من الإمام يعده فيه ويمنيه ويضمن له الكرامة ويقول له أنى أريد مشافهته، وقرأ كتاب الإمام عليه، يريد بذلك أنه إذا أتاه قبض عليه.

فلما أتته الرسل تلا لاهز قول الله تعالى: «**إِنَّ الْمَلأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ**» [القصص: ٢٠].

فتنبه نصر على ما أراد من تحذيره، فقال: أنا صائر معكم إلى الأمير أبى مسلم، ودخل بستانًا له كأنه يريد أن يلبس ثيابه ويركب دابته وهرب إلى الرى.

وسأل أبو مسلم عنه فأخبر بتلاوة لاهز الآية، فقال له: يا لاهز أعصيته فى الدين؟ قوما فاضربا عنقه، فضربت عنق لاهز.

وكان سليمان بن كثير الخزاعى أحد نقباء الدعوة فقتله أبو مسلم، لأنه كره سيرته وأخذ عنقود عنب، فقال اللهم سود وجه أبى مسلم كماسودت هذا العنقود واسقنى دمه.

قال أيضًا: حفرنا نهرًا بأيدينا، فجاء غيرنا فأجرى فيه الماء - يعنى أبا مسلم -.

وقتل زياد بن صالح من أجل أنه بلغه عنه أنه يقول إنما بايعنا على إقامة العدل وإحياء السنن، وهذا جائر ظالم يسير بسير الجبابرة وإنه مخالف.

وكان لزياد بلاء حسن فى إقامة الدولة فلم يرع له، فغضب عيسى بن ماهان مولى خزاعة لقتل زياد ودعا لحرب أبى مسلم سرًا، فاحتال عليه بأن دس إلى بعض ثقاته بقتله فكتب إليه أن رسول أمير المؤمنين - يعنى السفاح - قد قدم على الأمير بخلع وبر له وللأولياء فصر إلينا لتشركنا فى أمرنا.

فقدم عليه فأخذه وأدخله جوالق وضربه بالخشب حتى قتل.

وكان افلح بن مالك بن اسماء بن خارجة الفزارى بخراسان وكان صديقًا لأبى مسلم يلاعبه الشطرنج ويؤانسه وكان ذا قدر بخراسان فلما ظهرت الدعوة قدم على أبى مسلم وقال:

قل للأمير أمين الإمام   وصى وصى وصى وصى
أتيتك لا طالبًا حاجة   ومالى فى أرضكم من كفى

فكان أبو مسلم يبره ويكرمه، ثم أمر بقتله فقيل له صديقك وأنيسك، فقال: رأيته ذا همة وابهة فقتلته مخافة أن يحدث حدثًا وكان لا يقعد على الأرض إذا قعدت على السرير ولقد كان على كريمًا وكنت له محبًا.

فعير أبو جعفر المنصور أبا مسلم بقتله فيما عيره له لما عزم على قتله.

وكان أبو مسلم يخدم يونس بن عاصم فابتاعه منه بكير بن ماهان بأربعمائة درهم وبعث به إلى إبراهيم الإمام فلما ملك أبو مسلم مرو قدم عليه يونس بن عاصم فأكرمه غاية الإكرام. ثم دس إليه رجلاً، فقال: سله عن حاله عندى ولم أكرمته؟ فسأله.

فقال: كنت قهرمانًا له ناصحًا.

فقال له أبو مسلم: أبيت إلا كرمًا.

فقال: يا ابن اللخناء أردت أن أقول إنك كنت لى خادمًا فتقتلنى، فبالله أسألك لو لم أقلب المعنى ماكنت فاعلا؟

قال: قد كنت قدرت موضع خشبتك.

قال: أكان هذا جزائى؟

قال: ومن جازيناه بجزائه؟ وضعت سيفى فلم يبق بر ولا فاجر إلا قتلته[٦٤].

ومثل هذا كثير ومازال يسعى بجهده حتى أزال دولة بنى أمية، وأقيم عبيدالله بن محمد بن على بن عبدالله بن عباس الملقب بالسفاح فبعث عمه عبدالله بن على لقتال مروان بن محمد فقتله وبطش فى أهل الشام بطش الجبارين وسار من الجور سيرة لم يسرها أحد قبله.

وذلك أنه لما هزم مروان بالزاب وغلب على بلاد الشام وقتل أهل دمشق وهدم سورها وسار إلى فلسطين نادى وهو على نهر ابن فطرس فى بنى أمية بالأمان فاجتمعوا إليه فعجلت الخراسانية إليهم بالعمد فقتلوهم.

وقتل عبدالله جماعة منهم ومن أشياعهم.

وأمر بنبش قبر معاوية بن أبى سفيان فما وجد منه إلا خط ونبش قبر يزيد بن معاوية فوجد منه سلاميات رجله ووجد من عبدالملك بن مروان بعض شؤون رأسه ولم يوجد من الوليد وسليمان ابنى عبدالملك إلا رفات ووجد هشام صحيحًا إلا شيئًا من أنفه وشيئًا من صدغه فضرب عدة سياط وصلب ووجدت جمجمة مسلمة بن عبدالملك

---

(٦٤) انظر سيرة أبو مسلم الخرسانى فى كتب التاريخ. بداية من عام ١٢٩هـ وحتى مقتله عام ١٣٧هـ.

فاتخذت غرضًا حتى تناثرت.

ولم يعرض لعمر بن عبدالعزيز وجمع ماوجد فى القبور وأحرق.

وخطب عبدة بنت عبدالله بن يزيد بن معاوية بن أبى سفيان، زوج هشام بن عبدالملك بن مروان فأبت عليه التزويج فأمر بها فبقرت بطنها وجعلت حين أتى بها ليبقر بطنها وتقتل تنشد:

فقل للشامتين بنا افيقوا　　سيلقى الشامتون كما لقينا

فهذه سيرة عبدالله بن على، وولى السفاح ابن أخيه إبراهيم بن يحيى بن محمد ابن على بن عبدالله سنة ثلاث وثلاثين ومائة الموصل فدخلها فى أثنى عشر ألفًا فأول ما بدأ به أن دعا أهل الموصل فقتل منهم أثنى عشر رجلاً فنفر أهل البلد وحملوا السلاح فنادى من دخل الجامع فهو آمن فأتاه الناس يهرعون إليه فأقام الرجال على أبواب الجامع وقتل الناس فيه قتلاً ذريعًا تجاوز فيه الحد وأسرف فى المقدار.

فيقال أنه قتل أحد عشر ألف إنسان ممن له خاتم سوى من ليس فى يده خاتم وهم عدد كثير جدًا بحيث لم ينج من رجال الموصل مع كثرتهم إلا نحو أربعمائة رجل صدموا الجند فأفرجوا لهم.

فلما كان الليل سمع صراخ النساء اللاتى قتل رجالهن فأمر من الغد يقتلهن، فأقام رجاله ثلاثة أيام يقتلون النساء والصبيان.

وكان فى عسكره قائد معه أربعة آلاف عبد زنجى، فأخذوا النساء قهرًا.

فلما فرغ إبراهيم من قتل الناس فى اليوم الثالث ركب فى اليوم الرابع وبين يديه الحراب والسيوف المسلولة فأخذت امرأة بلجام دابته فأراد أصحابه قتلها فكفهم عنها، فقالت له: ألست من بنى هاشم، ألست ابن عم رسول الله؟ أما تأنف للعربيات المسلمات أن ينكحهن الزنوج؟

فلم يجبها وبعث معها من بلغها مأمنها.

ثم جمع من الغد الزنوج للعطاء وقتلهم عن أخرهم، ثم أمر بأن لا يترك فى الموصل ديك إلا ذبح ولا كلب إلا عقر، فنفذ ذلك.

فكانت هذه الفعلة لم نسمع بأقبح منها إلا ماكان من السفاح فإن زوجته أم سلمة بنت يعقوب بن سلمة بن عبدالله بن الوليد بن المغيرة بن عبدالله بن عمر بن مخزوم المخزومية قالت به: يا أمير المؤمنين لأى شىء استعرض ابن أخيك أهل الموصل بالسيف؟

فقال لها وحياتك ما أدرى؟

ولم يكن عنده من انكار هذا الأمر الفظيع سوى هذا.

ولعمرى لقد فاق فرعون فى فساده وأربى عليه فى عتوه وعناده، وأن السفاح بما فعله ابن أخيه قد صار يسوم أمة محمد (ص) من سوء العذاب أشد وأقبح ماكان فرعون يسوم بنى إسرائيل منه.

فكيف بها إذا ضمت مع ما حكاه البلاذرى، قال: كان أبو العباس - يعنى السفاح -

يسمع الغناء فإذا قال للمغنى أحسنت لم ينصرف من عنده إلا بجائزة وكسوة.

فقيل له أن الخلافة جليلة فلو حجبت عنك من يشاهدك على النبيذ فاحتجب عنهم.

وكانت صلاته قائمة لهم(٦٥).

فأين هذا من الهدى النبوى وسير أئمة الهدى؟ فما أبعده عن هداهم، ولله در القائل:

نزلوا بمكة فى قبائل نوفل ونزلت بالبيداء أبعد منزل

وأما أبو جعفر عبدالله بن محمد المنصور فأنه تزيا بزى الاكاسرة وجعل أبناء فارس رجالات دولتهم كبنى برمك وبنى نوبخت وأحدث تقبيل الأرض وتحجب عن الرعية وترفع عليهم بحيث أن عقال بن شبه قال له: أحمد الله فقد جزت مدى الخلفاء فغضب المنصور.

فقال: كبرت يا عقال وكبر كلامك، ففطن.

وقال: أجل لقد أحزن سهلى واضطرب عقلى وانكرنى أهلى ولا أقوم هذا المقام بعد يومى فلم يعش المنصور بعد ذلك إلا شهرين وأيامًا.

---

(٦٥) أنساب الاشراف. وانظر كتب التاريخ.

وحتى أن الربيع حاجبه ضرب رجلاً شمت المنصور عند العطسة، فلما شكا ذلك إلى المنصور.

قال: أصاب الرجل السنة، وأخطأ الأدب.

فأين قول أبى جعفر هذا من حديث النبوة الناطقة والإمامة الصادقة، ووالله ما الأدب كله إلا فى السنة النبوية، فإنها هى الجامعة للأدب النبوى والأمر الألهى.

لكنه غلب على القوم الجبروت ودخلت النعرة فى آنافهم وظهرت الخنزوانية بينهم فسموا عوائد العجم أدبًا وقدموها على السنة التى هى ثمرة النبوة فزادهم ذلك جفاء وقسوة حتى إن أبا جعفر كان ممن بايع محمد بن عبدالله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب ليلة تشاور بنو هاشم فيمن يعقدون له الإمامة، وذلك حين اضطربت أمور بنى أمية فلما أقيم أبو العباس عبدالله بن محمد السفاح فى الخلافة وعهد بها عند وفاته لأخيه أبى جعفر عبدالله بن محمد المنصور وقام من بعده بالأمر أهمه أمر محمد بن عبدالله وأخيه إبراهيم وألح على أبيهما عبدالله بن الحسن أن يحضرهما إليه لما حج.

وكان قد شردهما خوف جوره ثم حبس عبدالله وعدة من بنى الحسن ومعهم الديباج بن عبدالله بن عمرو بن عثمان بن عفان وهو أخوهم لأمهم فاطمة بنت أبى عبدالله الحسين بن على بن أبى طالب.

وجعل القيود والاغلال فى أرجلهم وأعناقهم وأركبهم محامل بغير وطاء وسار بهم

كذلك من المدينة النبوية وطنهم ووطن آبائهم حتى قدموا عليه وهو بالربذة فأمر بالديباج فشقت عنه ثيابه وضرب خمسين ومائة سوط فأصاب سوط منها وجهه.

فقال: ويحك أكفف عن وجهى فإن له حرمة برسول الله (ص).

فقال المنصور للجلاد: الرأس الرأس فضرب على رأسه نحوًا من ثلاثين سوطًا. فأصابا إحدى عينيه سوط منها فسالت على خده ثم قتله.

ومضى ببنى حسن إلى الكوفة فسجنهم بقصر بن هبيرة وأحضر محمد بن إبراهيم بن حسن وأقامه، ثم بنى عليه اسطوانة وهو حى وتركه حتى مات جوعًا وعطشًا. ثم قتل أكثر من معه من بنى حسن.

وكان إبراهيم الغمر بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب فيمن حمل مصفدًا بالحديد من المدينة إلى الأنبار، وكان يقول لأخوته عبدالله والحسن: أعوذ بالله من مناطيهن منايا تمنينا ذهاب سلطان بنى أمية واستبشرنا بسلطان بنى العباس ولم يكن قد انتهت بنا الحال إلى ما نحن عليه.

وقد قتل أبو جعفر أيضًا إسماعيل الديباج بن إبراهيم الغمر ومحمد بن إبراهيم، قيل دفنه حيًا.

وكان لأبى القاسم الرسى بن إبراهيم طباطبا بن إسماعيل الديباج ضيعة بالمدينة يقال لها الرأس فلم يسمح له أبو جعفر بالمقام بها حتى طلبه، ففر إلى السند وقال:

لم يروه ما أراق البغى من دمنا فى كل أرض فلم يقصر من الطلب
وليس يشفى غليلاً فى حشاء سوى أن لا يرى فوقها ابن لبنت نبى

وكتب صاحب السند إلى أبى جعفر أنه وجد فى خان بالمولتان[٦٦] مكتوبًا يقول: القاسم بن إبراهيم طباطبا العلوى انتهيت إلى هذا الموضع بعد أن انتعلت الدم من المشى، وقد قلت:

عسى منهل يصفو فتروى ظمئة اطال صداها المشرب المتكدر
عسى جابر العظم الكسير بلطفه سيرتاح للعظم الكسير فيجبر
عسى صور أمسى لها الجور حاقنا سيبعثها عدل بحى فتظهر
عسى الله لا تيأس عن الله أنه ييسِّر منه ما يعز ويعسر

فكتب إليه: قد فهمت كتابك وأنا وعلى وأهله كما قيل:

نحاول اذلال العزيز لأنه بدانا بظلم واستمرت مرائره

واستحلف ريطة امرأة ابنه محمد المهدى أن لا تفتح بيتًا عرضه عليها إلا مع المهدى بعد وفاته، ففتحته مع المهدى فإذا فيه من قتل من الطالبين وفى آذانهم رقاع فيها أنسابهم، وفيهم أطفال فأمر المهدى فحفرت لهم حفرة ودفنوا فيها.

فأين هذا الجور والفساد من عدل الشريعة المحمدية وسيرة أئمة الهدى؟

---

(٦٦) بلدة من بلاد الهند.

وأين هذه القسوة الشنيعة مع القرابة القريبة من النبوة؟

وتالله ما هذا من الدين فى شىء بل هو من باب قول الله سبحانه «**فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ (٢٢) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ**» [محمد: ٢٢].

وكان أبو الجهم بن عطية مولى باهلة من أعظم الدعاة قدرًا أو أعظمهم غناءًا وهو الذى أخرج أبا العباس السفاح من موضعه الذى أخفاه فيه أبو سلمة حفص بن سليمان الخلال وحرسه، وقام بأمره حتى بويع بالخلافة فكان أبو العباس يعرف له ذلك وكان أبو مسلم يثق به ويكاتبه، فلما استخلف أبو جعفر المنصور وجار فى أحكامه.

قال أبو الجهم ما على هذا بايعناهم إنما بايعناهم على العدل.

فأسرّها أبو جعفر فى نفسه، ودعاه ذات يوم فتغدى عنده، ثم سقاه شربة من سويق لوز، فلما وقعت فى جوفه هاج به وجع فتوهم أنه قد سم، فوثب.

فقال له المنصور: إلى أين يا أبا جهم؟

فقال: إلى حيث أرسلتنى؟

ومات بعد يوم أو يومين فقال:

أحذر سويق اللوز لا تشربنه   فشرب سويق اللوز أردى أبا الجهم

وأما غدره بأبى مسلم فغير خاف على رواة الأخبار، وكان أشد ما يحقده عليه كتابه إليه: (أما بعد فإنى اتخذت أخاك إمامًا وكان فى قرابته برسول الله (ص) ومحله

من العلم على ماكان، ثم استخف بالقرآن وحرفه طمعًا فى قليل من الدنيا قد نعاه الله لأهله ومثلت له ضلالته على صورة العدل، فأمرنى أن أجرد السيف وآخذ بالظنة ولا أقبل معذرة، وأن اسقم البرىء، وأبرىء السقيم، واتر أهل الدين فى دينهم وأوطأنى فى غيركم من أهل بيتكم العشوة بالافك والعدوان، ثم أن الله بحمده ونعمته استنقذنى بالتوبة وكره إلى الحوبة، فإن يعف فقديمًا عرف ذلك منه، وأن يعاقب فبذنوبى وما الله بظلام للعبيد).

فكتب إليه أبو جعفر: قد فهمت كتابك وللمدل على أهل بيته بطاعته ونصرته ومحاماته وجميع بلائه مقال، ولم يرك الله فى طاعتنا إلا ما تحب فراجع أحسن نيتك وعملك ولا يدعونك ما انكرته إلى التجنى فإن المغيظ ربما تعدى فى القول فاخبر بما لا يعلم، والله ولى توفيقك وتسديدك فاقدم رحمك الله مبسوط اليد فى أمرناو محكمًا فيما هويت الحكم فيه ولا تشمت الأعداء بك وبنا إن شاء الله).

فقدم عليه وقتله(٦٧).

فانظر اعزك الله إلى كتاب أبى مسلم يفصح لك عنه سيرة القوم ولن تجد أخبر بهم منه، ثم انظر إلى كتاب أبى جعفر جوابًا له، كيف لم ينكر عليه ما رماهم به ولا كذبه فى دعواه ذلك يحقق عندك صدقه ولا يوحشنك هذا من أخبارهم بل ضمه إلى وصية إبراهيم الإمام تجدهما قد خرجا من آل واحد.

وكان عبدالله بن دادبه وهو المقفع فد كتب لعبدالله بن على أمانًا حين أجاب أبو جعفر إلى أمانة فكان فيه فإن عبدالله بن عبدالله أمير المؤمنين لم يف بما جعل

---

(٦٧) انظر قصة مصرع أبو مسلم الخراسانى فى كتب التاريخ أحداث عام ١٣٧هـ.

لعبدالله بن على فقد خلع نفسه والناس فى حل وسعة من نقض بيعته، فانكر أبو جعفر ذلك وأكبره واشتد له غيظه على ابن المقفع، وكتب إلى أبى سفيان بن معاوية عامله على البصرة اكفنى ابن المقفع.

ويقال أنه شافهه بذلك عند توديعه إياه فجاءه ابن المقفع يومًا فأدخله حجرة، ثم سجر له تنورًا فألقاه فيه وهو يصيح يا أعوان الظلمة وقيل أنه ألقى فى بئر وأطبق عليه حجر وقيل ادخل حمامًا فلم يزل فيه حتى مات، وقيل دقت عنقه وقطع عضوًا عضوًا، وألقيت أعضاؤه فى النار وهو يراه، ويصيح صياحًا شديدًا.

وقيل ألقى فى بئر النورة فى الحمام وأطبق عليه صخرة فمات(٦٨).

وشكا بنو على بن عبدالله ماصنع سفيان بابن المقفع إلى أبى جعفر المنصور، فأمر بحمل سفيان إليه، فلما جئ به وجاء عيسى بن على وغيره ليشهدوا عليه أن ابن المقفع دخل داره فلم يخرج وصرفت دوابه وغلمانه يصرخون وينعونه.

وجاء عيسى بتاجرين يثبتون الشهادة على قتله.

فقال لهم المنصور: أرأيتكم إن اخرجت ابن المقفع إليكم ماذا تقولون؟

فانكسروا عن الشهادة وكف عيسى عن الطلب بدم ابن المقفع.

وكان سديف بن ميمون مولى آل أبى لهب مائلاً إلى أبى جعفر، فلما استخلف وصله بألف دينار، ثم أنه اتصل بمحمد وإبراهيم ابنى عبدالله بن حسن حتى قتلا، فاختفى حتى أمنه عبدالصمد بن على والى المدينة، فلما قدمها أبو جعفر جد فى طلبه

---

(٦٨) انظر ترجمة عبدالمقفع صاحب كليلة ودمنة فى وفيات الأعيان: جـ ١٥١/٢ هامش ترجمة الحلاج وانظر الكلمة والسيف للمعلق.

حتى ظفر به، فجعله فى جوالق وضرب حتى كسر، ثم رمى فى بئر وبه رمق حتى مات.

فهذا وأمثاله من سيرته خلاف سنن الهدى

وكان الفضل بن الربيع يمنع عائد الخليفة أن يسأل عن شىء يقتضى جوابًا ويقول اجعلوا عيادتكم دعاء فإذا أردت أن تقول كيف أصبح الأمير، فقل صبح الله الأمير بالكرامة.

وإن أردت السؤال عن حاله، فقل انزل الله على الأمير الشفاء والرحمة، فإن المسألة توجب الجواب.

وإن لم يجبك اشتد عليك، وإن أجابك اشتد عليه.

وكانت الخلفاء إذا عطست شمتت، فعطس هارون الرشيد فشمته رجل، فقال له الفضل: لا تعد أتكلف أمير المؤمنين ردًا وجوابًا، فجروا على ذلك فيما بعد.

وهذا المأمون عبدالله بن هارون الرشيد قد أثر فى الإسلام أقبح أثر وهو أنه عرّب كتب الفلسفة حتى كاد بها أهل الزيغ والالحاد الإسلام وأهله وحمل مع ذلك الناس كافة على القول بخلق القرآن وامتحنهم فيه أشد محنة وأكثر من شراء الأتراك وتغالى فى أثمانهم حتى كان يشترى المملوك منهم بمائتى ألف درهم(٦٩).

---

(٦٩) انظر سيرة المأمون وفتنة خلق القرآن التى راح ضحيتها الحنابلة فى تاريخ الخلفاء للسيوطى وكتب التاريخ.

واقتدى به أخوه أبو إسحاق المعتصم فاشتد على الناس فى امتحانهم بالقول بخلق القرآن وانتهك أعراضهم وبرّح بالضرب الشديد أبشارهم.

وأخرج العرب قوم رسول الله (ص) الذين أقام الله بهم دين الإسلام من الديوان وأسقط عطاءهم، فسقط ولم يفرض لهم بعده عطاء.

وأقام بدلهم الأتراك، وخلع لباس العرب وزيهم، ولبس التاج وتزيا بزى العجم الذين بعث الله نبيه محمد بقتلهم وقتالهم فزالت به وعلى يديه الدولة العربية وتحكم منذ عهده وأيام دولته الأتراك الذين انذر الله بقتالهم فغلبوا من بعده على الممالك.

وسلطهم الله على ابنه جعفر المتوكل فقتلوه، ثم قتلوا ابن ابنه أحمد المستعين وتلاعبوا بدين الله وتغلبوا على الأطراف كلها[٧٠].

وفعل المتوكل جعفر بن المعتصم فى خلافته من الانهماك فى الترف المنهى عنه ما يقبح مثله من آحاد الرعية.

وجهر بالسوء من القول فى أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه حتى قتله بيد أعوانه وأنصار دولته.

فقام من بعده ابنه محمد المنتصر فأتى بطامة لم يسمع فى الجور نظيرها وهو أنه كتب إلى الآفاق بأن لا يقبَّل علوى ضيعة ولا يركب فرسًا إلى طرفة من الأطراف وأن يمنعوا من اتخاذ العبيد، إلا العبد الواحد ومن كان بينه وبين أحد من الطالبين خصومة

---

(٧٠) انظر تاريخ الخلفاء.

من سائر الناس قبل قول خصمه فيه، ولم يطلب بينة وقرىء هذا الكتاب على منبر مصر.

فبالله هل سمع فى أخبار الجائرين أهل العناد والشقاق بمثل ما أمر به هذا الجائر، لا جرم أن الله أخذه ولم يمهله فكانت دولته ستة أشهر(٧١).

وما زالت أمور الإسلام تتلاشى والدولة تضعف، إلى أن انتقل الملك والدولة فى آخر أيام المتقى إبراهيم بن جعفر المقتدر، وأول أيام خلافة المستكفى عبدالله بن المكتفى من بنى العباس إلى بنى بويه الديلمى(٧٢).

فلم يبق بيد بنى العباس من الخلافة إلا اسمها فقط من غير تصرف فى ملك بحيث صار الخليفة منهم فى مدة الدولة البويهية، ثم فى الدولة السلجوقية إنما هو كأنه رئيس الإسلام، لا أنه ملك ولا حاكم تتحكم فيه الديلم ثم السلجوقية كتحكم المالك فى مملوكه كما هو معروف فى كتب التاريخ.

وما زالت ضعفة بنى العباس مع الديلم ومع الاتراك منذ استولى معز الدولة أحمد بن بويه ببغداد فى جمادى الأولى سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة تحت الحكم إلى أن قتلوا عن آخرهم وسبى حريمهم وهدمت قصورهم وهلكت رعاياهم على يد عدو الله هولاكو وكانوا هم السبب فى ذلك كما قد ذكر فى سيرة الناصر أحمد بن المستضىء.

---

(٧١) انظر المرجع السابق وكتب التاريخ.

(٧٢) من هذه الفترة قامت دولة البويهيين الشيعة وأصبح الخليفة العباس يأتمر بأمرهم. انظر تاريخ الخلفاء وتاريخ دول الإسلام للذهبى وأخبار البويهيين فى كتب التاريخ.

وقد ثبت فى الصحيح فى حديث معاوية أنه سمع رسول الله (ص) يقول: إن هذا الأمر فى قريش لا يعاديهم أحد إلا أكبه الله على وجهه، ما أقاموا الدين(٧٣).

وروى وكيع عن كامل أبى العلاء عن حبيب بن أبى ثابت عن عبيدالله بن عبدالله عتبة قال: قام رسول الله (ص) فقال: يامعشر قريش إنّ هذا الأمر لا يزال فيكم حتى تحدثوا أعمالا تخركم منه، فإذا فعلتم ذلك سلط الله عليكم شر خلقه، فالتحوكم كما يلتحى القضيب وهو حديث مرسل وعبيد الله هذا هو ابن عبدالله بن عتبة بن مسعود وأبو عبدالله الهذلى المدنى الأعمى، أحد الفقهاء السبعة، مات سنة تسع وتسعين.

﴿فصل فى اتفاق الخلافة الإسلامية مع الملة الموسوية﴾

وقد اتفق فى الخلافة الإسلامية كما اتفق فى الملة الموسوية حذو القذة بالقذة، وذلك أن العرب كلها ترجع إلى قحطان وعدنان، فيقال لسائر قحطان اليمن، ويقال لسائر بنى عدنان المضرية والنزارية، وهى قيس. والعرب كلها على ست طبقات شعوب وقبائل وعمائر وبطون وأفخاذ وفصائل وما بينهما من الآباء يعرفها أهلها.

قال الله جلت قدرته «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا**» [الحجرات: ١٣] فالشعوب جمع شعب بفتح الشين وهو أكبر من القبيلة، وقيل الشعب هو الحى العظيم، مثل ربيعة ومضر والأوس والخزرج سموا بذلك لتعبهم واجتماعهم كتشعب أغصان الشجر.

وقيل الشعب القبيلة نفسها، وقد غلبت الشعوب بلفظ بلفظ الجمع على جيل العجم حتى قيل لمحتقر أمر العرب شعوبى والقبائل جمع قبيلة.

---

(٧٣) انظر مسلم كتاب الإمارة والبخارى كتاب الأحكام.

والقبيلة من الناس بنو أب واحد وهى دون الشعب كبكر من ربيعة، وتميم من مضر.

وقيل القبيلة الجماعة التى تكون من واحد ويقال لكل جمع على شىء واحد قبيل.

قال تعالى: «**إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ** » [الأعراف: ٢٧].

واشتقت القبيلة من قبائل الشجر وهى أغصانها، وقيل أخذت من قبائل الرأس وهى أطباقها الأربع لأن العمائر تقابلت عليها والعمائر واحدها عمارة وهى اصغر من القبيلة، وقيل العمارة هى الحى العظيم الذى يقوم بنفسه.

والشعب يجمع القبائل والقبيلة تجمع العمائر والعمارة تجمع البطون والبطون واحدها بطن وهو دون القبيلة، وقيل دون الفخذ وفوق العمارة فالبطن يجمع الافخاذ، وفخذ الرجل حيه من أقرب عشيرته إليه، ثم الفخذ يجمع الفصائل، وفصيلة الرجل عشيرته ورهطه الادنون، وقيل الفصيلة أقرب آباء الرجل إليه، فكنانة قبيلة، وقريش عمارة، وقصى بطن وهاشم فخذ، وبنو العباس فصيلة.

وكما أن الله جعل العرب شعوبًا وقبائل فقد جعل بنى اسرائيل أسباطًا، فالسبط من بنى اسرائيل كالقبيلة من العرب وبنو العرب وبنو اسرائيل وهو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل صلوات الله عليهم إثنا عشرة سبطًا، وهم يوسف النبى، وبنيامين، وكاد، ويهوذا، ونفتالى، وزبولون، وشمعون، وروبين، ويساخار، ولاوى، وذان، وياشر، فكل ولد من هؤلاء الأثنى عشر يقال له سبط، ومنهم كلهم سائر بنى إسرائيل.

فإذا عرفت ذلك فاعلم أن موسى صلوات الله عليه هو موسى بن عمران

ابن قاهت بن لاوى بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم فهو من سبط لاوى، فلما مات لم يخلف فى إسرائيل أحد من سبط لاوى الذين هم قرابته القريبة وإنما خلفه يوشع وهو سبط افرائم بن يوسف وهو بعيد من سبط لاوى وذلك أنه يوشع بن نون بن اليشماع بن عميهود بن لعدان بن تالح بن راشف بن بريعا بن افرائم بن يوسف النبى بن يعقوب عليهما السلام.

وهكذا وقع فى الإسلام، فإن رسول الله (ص) سيد بنى هاشم هو محمد بن عبدالله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصى بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان بلا خلاف فى ذلك، ولما توفى رسول الله (ص) لم يخلفه فى أمته أحد من بنى عاشم الذين هم أقرب العرب إليه.

بل خلفه (ص) أبو بكر وهو من بنى تيم بن مرة بن كعب، فإنه أبو بكر عبدالله بن أبى قحافة عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة.

فانظر كيف كان أبو بكر خليفة رسول الله (ص) فى البعد من جذم رسول الله (ص) كبعد يوشع من أصل موسى عليه السلام فإن أبا بكر إنما يلتقى مع رسول الله (ص) فى مرة بن كعب بن لؤى بعد عدة آباء، وكذلك يوشع إنما يلتقى مع موسى فى يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام بعد عدة أيام.

وكما أنه قام بأمر بنى إسرائيل بعد يوشع خليفة موسى جماعة مختلفوا الأنساب بعضهم من سبط يهودا وبعضهم من سبط يساخار، وبعضهم من سبط بنيامين، وبعضهم من سبط منشا بن يوسف وبعضهم من سبط غاث وبعضهم من سبط ذان.

كذلك قام بالخلافة بعد أبى بكر جماعة مختلفة أنسابهم.

بعضهم من بنى عدى وهو عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبدالعزى بن رباح بن عبدالله بن قرظ بن رزاح بن عدى بن كعب.

وبعضهم من بنى أبى العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصى وهو عثمان بن عفان بن أبى العاص.

وبعضهم من بنى هاشم وهما على بن أبى طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصى وابنه الحسن بن على بن أبى طالب.

وبعضهم من بنى أمية بن عبد شمس وهم معاوية بن أبى سفيان بن حرب بن أمية وابنه يزيد بن معاوية وابنه معاوية بن يزيد بن معاوية بن أبى سفيان.

وبعضهم من بنى أسد بن عدى بن عبد العزى بن قصى بن كلاب وهو عبدالله بن الزبير بن العوام بن أسد بن عبدالعزى.

وبعضهم من بنى الحكم ابن أبى العاص بن أمية بن عبد شمس وهم مروان بن الحكم وابنه عبدالملك بن مروان وبنوه.

وكما أن بنى إسرائيل استقر أمرهم بعد من ذكرنا فى يهوذا كذلك استقرت الخلافة بعد من ذكرنا فى بنى العباس.

وكما أن يهوذا عم موسى عليه السلام، كذلك العباس بن عبدالمطلب بن هاشم وهو عم رسول الله (ص).

وكما أن يهوذا قدمه يعقوب على اخوته وبشره ومدحه، كذلك العباس رضى الله عنه كان رسول الله (ص) يجله ويكرمه ويثنى عليه.

وكما أن أمر بنى إسرائيل افترق فى دولة بنى يهوذا وصار بعد موت سليمان بن داود عليهما السلام فرقتين: فرقة بالقدس مع ابنه رحبعم بن سليمان وهم يهوذا وسبط بنيامين.

وفرقة بشمرون مع يربعام بن نباط وهم بقية الأسباط.

كذلك لما صارت الخلافة فى بنى العباس افترق أمر الأمة فصار فى الانبار، ثم فى بغداد بنو العباس وفى الأندلس عبدالرحمن بن معاوية بن هشام بن عبدالملك بن مروان بن الحكم وبنوه من بعده.

فلم تدخل الأندلس تحت طاعة بنى العباس، كما لم تدخل شمرون تحت حكم سبط يهوذا.

وكما أن مدينة القدس التى هى دار ملك بنى يهوذا كانت تدعى أورشليم ومعناه دار السلام، كذلك بغداد دار ملك بنى العباس كان يقال لها دار السلام.

وكما أن دولة يربعام من بعده بشمرون التى عرفت بنابلس إنقرضت قبل دولة بنى يهوذا بالقدس فإنهالم تقم غير مائتين واحدى وستين سنة، فكذلك دولة بنى أمية بالأندلس فأنها انقرضت قبل انقراض دولة بنى العباس فكانت مدتهم مائتين وسبع وستين سنة.

وكما أن دولة بنى يهوذا بالقدس أقامت من عهد داود عليه السلام وهو أول من ملك منهم إلى أن انقرضت نحوًا من خمسمائة سنة فإنها أقامت أربع مائة وعشر سنين كذلك بنو العباس أقامت خلافتهم منذ أبى العباس عبدالله السفاح أول قائم منهم إلى أن انقرضت أيامهم خمسمائة وأربعًا وعشرين سنة.

وكما أن دولة بنى يهوذا انقرضت على يد بخت نصر فإنه سار إليهم من بلاد المشرق وقاتلهم وهدم القدس دار ملكهم وقتل رجالهم وسبى نساءهم، فكذلك زالت دولة بنى العباس على يد هولاكو لما قدم إلى بغداد من بلاد المشرق فقتل الرجال وسبى النساء.

وكما أن أمر بنى إسرائيل لم يجتمع بعد زوال دولتهم لواحد يقوم بدينهم كذلك أمة محمد (ص) لم تجتمع بعد انقراض خلافة بنى العباس لواحد بل صار فى كل قطر ملك وكما عاد لبنى إسرائيل بعد إزالة بخت نصر دولتهم ملك كانوا فيه تحت يد اليونان وغيرهم مدة عمارة بيت المقدس بعد عودتهم من الجالية.

كذلك أقام الأتراك ملوك مصر رجلاً من بنى العباس جعلوه خليفة وليس له أمر ولا نهى ولا نفوذ كلمة[٧٤].

وكما أن بنى إسرائيل قوم موسى عليه السلام قطعهم الله فى الأرض أممًا كذلك قريش قوم رسول الله (ص) تفرقوا فى أقطار الأرض وصاروا رعية ورعايا ليس لهم ملك ولا دولة.

---

(٧٤) المقصود بملوك مصر هنا حكام المماليك الذين استعانوا بأبناء العباسيين الفارين من وجه التتر كواجهة شرعية لهم ونصبوهم خلفاء بلا سلطة وكانوا أحيانًا يقتلونهم. انظر سيرة هؤلاء فى تاريخ الخلفاء للسيوطى.

وكما أن أنساب بنى إسرائيل جهلت بأسرها إلا بعض بنى يهوذا فإن نسبهم يتصل بداود عليه السلام، كذلك قريش جهلت فى هذه الأيام أنساب جميع بطونها إلا ماكان من بنى حسن وحسين فأن أنساب كثير منهم متصلة إلى على بن أبى طالب رضى الله عنه.

فانظر أعزك الله كيف تشابه أمر هذه الأمة المحمدية بأمر الأمة الموسوية، وقد انذر بذلك رسول الله (ص)، وكان هذا من أعلام نبوته كما بينته فى كتاب «إمتاع الأسماع بما للرسول من الأبناء والأحوال والحفدة والمتاع (ص).

ثبت فى غير موضع من البخارى ومسلم وغيرهما من حديث زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال: قال رسول الله (ص): «لتتبعن سنن الذين من قبلكم شبرًا بشبر وذراعًا بذراع حتى لو دخلوا جحر ضب لاتبعتموهم) قلنا: يا رسول الله اليهود والنصارى؟ قال فمن؟ هذا لفظ مسلم، ولفظ البخارى لتتبعن سنن من قبلكم شبرًا بشبر وذراعًا حتى لو دخلوا جحر ضب تبعتموهم، الحديث بمثله.

وفى لفظ له: لتتبعن سنن من قبلكم شبرًا بشبر وذراعًا بذراع حتى لو سلكوا جحر ضب لسلكتموه، قلنا يا رسول الله اليهود والنصارى؟ قال فمن؟ ولبقى ابن مخلد من حديث أبى سلمة عن أبى هريرة أن النبى (ص) قال لتتبعن سنن من كان قبلكم باعًا بباع وذراعًا بذراع وشبرًا بشبر حتى لو دخلوا فى جحر ضب لدخلتم معهم، قالوا يا رسول الله اليهود والنصارى؟ قال: فمن، والله أعلم.

﴿تم وكمل بحمد الله وبعونه وصلى الله على سيدنا محمد﴾
﴿وآله وسلم تسليمًا كثيرًا آمين﴾

ملحق

فصل الحاكم في النزاع والتخاصم

لمحمد بن عقيل العلوي

١٢٧٩هـ/١٣٥٠هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله وسلم على خير خلقه سيدنا محمد وآله ومن تبعهم بإحسان.

الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنّا لنهتدى لولا أن هدانا الله، وصلاته وسلامه على سيدنا ومولانا محمد وآله الهداة، ومن اتبعه ووالاه، اللهم أرنا الحق حقًا وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه، ولا تجعله مشتبهًا علينا فنتبع الهوى.

أما بعد فقد قرأت كتاب (**النزاع والتخاصم فيما بين بنى أمية وبنى هاشم**) للحافظ العلامة أحمد بن على بن عبدالقادر المقريزى رحمه الله، فرأيته جمع فيه فوائد عديدة حسنة، وأدخل معها قليلاً من الوهم والغلط، فاستخرت الله عز وجل، واستعنت به، وتوكلت عليه، واستخلصت منه زبدة صالحة ممزوجة بزيادات صحيحة زدتها، ولم أتقيد بألفاظ المصنف فيما استخلصه من كتابه، وقد أتممت البحث بتبيين الصواب، وكشف النقاب عن الوهم والغلط، الذى راج على المصنف رحمه الله تعالى.

وأسأل الله الكريم أن يجعل صنيعى خالصًا لوجهه، وأن ينفعنى به، وينفع به صالحى عباده إنه الجواد الرحيم.

وقد سميته (**فصل الحاكم فى النزاع والتخاصم فيما بين بنى أمية وبنى هاشم**).

ذكر المصنف رحمه الله بعد ديباجة كتابه أنه يكثر تعجبه من تطاول بنى أمية إلى الخلافة مع بعدهم من جذم رسول الله (ص) فأين بنو أمية وبنو مروان بن الحكم طريد رسول الله (ص) ولعينه من التحدث بالخلافة سيما مع ما كانوا عليه، فإن العداوة

والمباينة الشديدة بين بنى أمية وبنى هاشم كانت فى الجاهلية، ثابتة، ثم ازدادت شدة ورسوخًا فى الإسلام لمبالغة بنى أمية فى عداوة النبى (ص) وعداوة المسلمين، وأذيتهم، وجدهم واجتهادهم فى استئصال شأفتهم، واستمرارهم على ذلك إلى أن قهروا وألجئوا إلى الإسلام كرهًا يوم الفتح.

ولم يزل فيهم بعد ذلك من يضمر العداوة للإسلام وأهله، ويعرف بذلك، فلعمرى لا بعد أبعد مما بين بنى أمية، والخلافة، إذ لا سبب ولا نسب لهم يمتون به إليها ما سوى القرشية التى يستوى معهم فيها قريش الظواهر.

فذو القرابة القريبة غيرهم، والوصية إلى سواهم، والناصرون للإسلام ولنبيه أعداؤهم، والسابقون إليه مقاتلوهم.

فليسوا فى قليل ولا كثير ما يدلى به إلى الخلافة من دين أو علم به، أو نصر له، أو قرابة قريبة غير مجذوذة إلى صاحبه، أو وراثة، وكل هذا مجمع عليه، ولا نزاع فيه بين المسلمين.

وحيث قد بعد القوم كل البعد عن كل مؤهل للخلافة، فليتهم سلموا مما يبعدهم أشد البعد عنها، ولكنه قد اجتمع فيهم من ذلك ما يعسر عده.

فعداوة كبيرهم أبى سفيان بن حرب لرسول الله (ص) ومحاربته له وإجلابه عليه، وغزوه إياه أشهر من أن ينكر، ولقد أسلم بعد ذلك كرهاً، فسلم ولم يكن خلاصه إلا بشفاعة العباس بن عبد المطلب، وقد طلب له حينئذ ما طلب.

فكانت المكافأة عن تلك اليد البيضاء محاربة على، وتسميم الحسن ابنه، وقتل

الحسين ومن معه من أولاد على، وقرابات النبى (ص) وحمل نسائهم وذراريهم حواسر على الأقتاب، والكشف عن سوأة على بن الحسين لما أشكل عليهم بلوغه، كما يصنع بأبناء المشركين، وقتل بسربن أرطأة وزير معاوية وأميره ابنى عبيد الله بن العباس طفلين صغيرين، فتدلهت أمهما، ورثتهما بشعرها السائر.

وقتلهم أولاد عقيل بن أبى طالب مع زعمهم أنه كان قد أعانهم على حرب أخيه، فإن صدقوا فقد جزوه بما هم أهله، وإن كذبوا فما أحراهم بالبهتان.

ومن عرف بنى أمية لا يعجب مما صنعوا لأن مثلهم لا يكون منه إلا ما كان منهم، ولكن العجب كل العجب من صنيع الأمة معهم مع معرفتهم أحوالهم وتراجم رجالهم.

فمنهم أبو أحيحية سعيدبن العاص بن أمية مات مشركاً كان من أشد الناس عداوة وبغضاً لرسول الله (ص)، ومنهم عقبة بن أبى معيط كان فاجراً فاحشاً، خبيثاً، وجد رسول الله (ص) ساجداً لله تعالى فوطأ عنقه الشريف وطأ شديداً، ووجده مرة أخرى فوضع عليه سلا جزور أو شاة، وقد أسر ببدر، فأمر النبى (ص) عليا فقتله، فقال للنبى (ص): يا محمد من للصبية؟

قال: النار.

ومنهم الحكم بن أبى العاص لعين رسول الله (ص) وطريده كان مؤذياً لرسول الله وعاراً فى الإسلام، لم يحسن إسلامه بل كان يتطلع أخبار النبى (ص) بالمدينة، ثم يخبر بها الكفار، ومشى مرة خلف النبى (ص) وهو يتخلج بأنفه وفمه، ويتفكك ويتمايل كأنه يحاكى النبى، فالتفت إليه النبى (ص) فرآه فقال له: كن كذلك، فمازال بقية عمره على ذلك.

وطرده النبى (ص) من المدينة، ولعنه وما ولد، وقال: ويل لأمتى مما فى صلب هذا، وله أخبار سيئة كثيرة.

وقال فيه عبد الرحمن بن حسان بن ثابت يخاطب ابنه:

إن اللعين أباك فارم عظامه
إن ترم ترم مخلجاً مجنوناً
يضحى خميص البطن من عمل التقى
ويظل من عمل الخبيث بطينا

ومن أعداء النبى (ص) عتبة بن ربيعة عدوّ اللّه ورسوله، وهو جد معاوية، وقتله حمزة كافرًا ببدر، فلما قتل حمزة بأحد لاكت هند بنت عتبة كبده، واتخذت لها حليًا من آرابه، وأعطت حليها قاتله وحشيًا، وقد استثناها النبى (ص) من الأمان العام يوم فتح مكة، وأمر بقتلها فى من أمر بقتله، فأسلمت، وهى أم معاوية مبدل أحكام الإسلام، وهادم أركانه.

ومنهم الوليد بن عتبة قتله على ببدر كافرًا، وهو خال معاوية.

ومنهم شيبة بن ربيعة، وكان ممن يكيد لرسول اللّه (ص) ويؤذيه، وقتل ببدر كافرًا.

ومنهم أبو سفيان والد معاوية حامل راية عداوة اللّه ورسوله، وقائد الأحزاب،

وأحد أكبر أئمة الكفر، وأشدهم عداوة لله ولرسوله، وللمسلمين، وأكثرهم اجتهادًا فى محاربته، وكيده، وأحرصهم على استئصالشأفة الإسلام، ومحوه، وكان زندقيًا فى الجاهلية، ثم أسلم كرهًا إسلامًا مدخولاً، وخرج مع رسول الله (ص) فى غزوة حنين، ومعه الأزلام يستقسم بها، وسرّ بهزيمة المسلمين، ثم كان كهفًا للمنافقين، روى الحسن أن أبا سفيان دخل على عثمان حين ولى الخلافة فقال: أدرها كالكرة، واجعل أوتادها بنى أمية، فإنما هو الملك، ولا أدرى ما جنة ولا نار.

ومنهم معاوية بن المغيرة، وهو ممن مثل بحمزة بعد قتله، وقتله على وعمّار كافرًا بأمر من النبى (ص).

ومنهم حمالة الحطب عمة معاوية كانت تسب النبى (ص) وتؤذيه، وتضع الشوك فى طريقه، وهلكت كافرة.

فجميع هؤلاء ككثير غيرهم من قرباتهم بذلوا جهدهم فى عداوة الله ورسوله، وفى أذيته، وأذيّة المسلمين حتى ألجأوهم إلى الهجرة إلى الحبشة، ثم إلى المدينة فرارًا من الاضطهاد والظلم والتعذيب، فاستولى الظالمون على رباع ومخلفات المهاجرين وباعوها، وهموا بقتل النبى (ص) غير مرة فحفظه الله من مكرهم، وبالغ كل منهم، وبذل كل جهده بنفسه وبماله وعشيرته فى كيده، ولما هاجر رسول الله (ص) إلى المدينة ونجاه الله من شرهم جعلوا لمن يقتله مائة بعير نادوا بذلك فى أعلى مكة وأسفلها حسدًا للنبى (ص)، وحقدًا عليه.

ففى هذه الطغمة كهف النفاق، والوزغ وابن الوزغ، وناقر ثنايا الحسين بالقضيب، وصبية النار، وآكلة الأكباد، وحمالة الحطب.

ومن مآثرهم من بعد الإشادة بلعن صنو النبى وسيد المسلمين، وقتل فضلاء المهاجرين والأنصار والبدريين، وأصحاب الشجرة، ثم قتل الحسين بن النبى وريحانته، ووطء صدره وظهره الشريفين، بسنابك الخيل، وقتل زيد بن على، ثم نبشهم له من قبره، وصلبه بعد أن ألقوا رأسه الكريم فى عرصة الدار تطأه الأقدام، وتنقر دماغه الدجاج فقال الشاعر:

اطردوا الديك عن ذؤابة زيد
طالما كان لاتطأه الدجاج

وقال شاعرهم مفتخرًا بفجورهم:

صلبنا لكم زيدًا على جذع نخلة
ولم نر مهديًا على الجذع يصلب

ثم قتلوا ابنه يحيى بن زيد، وسموا قاتله ثائر مروان، وناصر الدين، وضربوا على ابن عبدالله بن العباس بالسياط مرتين، وسمّموا أبا هاشم بن محمد بن على، وقتلوا إبراهيم الإمام، ادخلوا رأسه فى جراب نورة إلى أن مات، وبالحرة قتلوا عون بن عبدالله ابن جعفر.

وقد كان أعرق الناس فى الكفر وفى عداوة النبى (ص) عبدالملك بن مروان بن الحكم، ومن الغريب أنه لم يمنعه ذلك عن أن يكون خليفة، ووالد خلفائهم أيضًا، ومثل عبدالملك بعض قومه يعرف ذلك من عرفهم، فإن جد عبدالملك لأبيه الحكم بن أبى

العاص، وقد مرّ ذكره، وجده لأمه معاوية وبن المغيرة، ومرّ ذكره، وأبوه مروان فضض من لعنة اللّه، وهو الوزغ ابن الوزغ الملعون ابن الملعون، هو وولده إلاّ الصالحين، وقليل ما هم كما صح بذلك الحديث، وهو من بنى أمية الشجرة الملعونة فى القرآن، وهل يكون أمير المؤمنين إلاّ أولاهم بالإيمان، وأقدمهم فيه.

وقد حدا الحادى بهشام بن عبدالملك، وهو رجلهم فقال:

إن عليك أيها البختى
أكرم من تمشى به المطى

فقال: صدق قولك.

وقال مرة: واللّه لأشكون سليمان بن عبدالملك يوم القيامة إلى أمير المؤمنين عبدالملك بن مروان، وكفى بهذا جهلاً.

وولّى ابنه سعيدًا حمصًا فبلغه زناه بنساء الناس، فقال به: يابن الخبيثة تزنى وأنت ابن أمير المؤمنين! أفجر فجور قريش، اقتل هذا وخذ مال هذا.

وبنو أمية لهم أكبر سابقة من التهتك والفسوق، والوقاحة، فقد نافر أمية هاشمًا فنفره هاشم، فخرج أمية إلى الشام، وأقام بها عشر سنين، وكان مضعوفًا وصاحب عهار، ونافر حرب بن أمية عبدالمطلب إلى نفيل بن عبدالعزى، فتعجب نفس من إقدام حرب على المنافرة، وقال له:

أبوك معاهر وأبوه عف
وذاد الفيل عن بلد حرام

وقد صنع أمية شيئًا لم يصنعه أحد من أهل الجاهلية، فقد نزل لابنه أبى عمرو فى حياته عن زوجته، وزوجه بها فبنى بها أبو عمرو أمام أبيه، وكان المقيتون فى الجاهلية الذين يتزوجون نساء آبائهم بعد موتهم، أما من يتزوج زوجة أبيه وهو حى على مرأى منه، فهذا لم يكن قط من غير أمية، ولله القائل:

عبد شمس قد أضمرت لبنى ها
شم حربًا يشيب منها الوليد
فابن حرب للمصطفى وابن هند
لعلى وللحسين يزيد

ولاشك أن الأمر كما قال الشاعر:

إن العداوة تلقاها وإن قدمت
كالعر يسكن أحيانًا وينتشر

إن رسول الله (ص) قد أبعد بنى أمية عنه، وأخرجهم من قرابته، واختص بها بنى هاشم، وبنى المطلب صح بذلك الحديث من طرق، فلم يجعل (ص) القرابة النسبية وحدها قرابة معتبرة فى أحكام دين الله تعالى مالم تقترن بها القرابة الدينية، فلم ينفعهم كونهم من بنى عبد مناف لعداوتهم فى الدين، وخدلانهم وعنادهم بخلاف إخوانهم بنى عبدالمطلب بن عبد مناف، لمسالمتهم له فى الجاهلية، وإسراعهم فى نصره وموالاته، فلقد وقوه بأنفسهم، حين تخلى عنه الناس أجمعون، ودخلوا معه الشعب واحتملوا مضض الحصار والخوف والجوع الشديد مؤمنهم وكافرهم، ما خلا أبو لهب

لعنه الله وأبعده، وقد كان السابقون من المسلمين من غير أهل البيت إذ ذاك فى أمن وخصب وراحة ولله القائل:

وأرى القرابة لا تقرب قاطعًا

وأرى المردة أكبر الأسباب

فمن أغرب الغرائب اضطهاد الأمة وقهرها وقتلها من نصر نبيها (ص)، ونصح له ووقاه بروحه، وبذل فى حبه كامل جده واجتهاده، وأوصى النبى (ص) الأمة به، وحرضها على حفظه، وتكريمه،والتمسك به، وضمن لها عدم الضلال إن امتثلت ما أمِرَت، واختصه النبى (ص) بامتيازات ذوى القربى، واستخلافها وترئيسها، وتأميرها، ونصرها من حارب نبيها، وكذبه ونابذه وكاده، وآذاه واجتهد فى أن يقتله، وفى أن يهلك الإسلام ويمحوه، ومن حذر النبى (ص) الأمة منه، وأخرجه من قرابته، فلم يجعل له حظًا من سهم ذوى القربى، فكيف يستحق نصيبًا فى الخلافة من لم يستحق ذرة من المال، وكيف يقيم دين الله أعدى عدو لله ولرسوله.

وليت بنى أمية إذ أنزلتهم الأمة الإسلامية المنزلة التى لم يجعلها الله لهم، وملكتهم زمامها عدلوا وأصلحوا، وعملوا خيرًا.

ولكنهم أفسدوا وفسقوا وجاروا، واستأثروا بأموال الأمة كلها، وأهلكوا عترة نبيها (ص) قتلاً وتشريدًا وأهانوا أنصاره، وبدلوا الأحكام، حتى قرروا عند أهل الشام أنه لا قرابة لرسول الله (ص) يرثونه إلا بنى أمية، وقال نائبهم الحجاج جهارًا على المنبر، رسولك أفضل أم خليفتك، يعرض بأن عبدالملك بن مروان أفضل من رسول الله (ص).

وقام ابن شُفَى فى مجلس هشام بن عبدالملك فقال أمير المؤمنين خليفة الله، وهو أكرم على الله من رسوله فأنت خليفته ومحمد رسول الله.

وصرح أميرهم خالد بن عبدالله القسرى على منبر مكة بأن عبدالملك بن مروان أفضل من خليل الرحمن (ص) كما نقل هذا ابن جرير.

وقال يوسف بن عمر عامل هشام بن عبدالملك فى خطبته يوم الجمعة: إن أول من فتح على الناس باب الفتنة، وسفك الدماء على وصاحبه الزنجى، يعنى عمار بن ياسر.

وقد صحح الحاكم حديث على فى قوله عز وجل ﴿وأحلوا قومهم دار البوار﴾ قال: هما الأفجران من قريش: بنو أمية، وبنو المغيرة، فأما بنو المغيرة فقد قطع الله دابرهم، وأما بنو أمية فمتعوا إلى حين.

وبعد ذكر المقريزى أكثر ما تقدمت الإشارة إليه أفاد أنه طالت حيرته، وتفكر فى ذلك سنين عديدة، وذاكر به مشيخة ممن لقيهم، فلم يجد طول عمره غير رجلين أحدهما قد عراه ما عرا المقريزى من الحيرة، وثانيهما مقلد لا يزيد مذاكره على التهويل شيئًا.

أول الأوهام/ ثم اتضح للمقريزى رحمه الله أن سبب طمع بنى أمية فى الخلافة رغمًا عما تقدمت الإشارة إليه من حالهم المنافى لها، وسبب منعها عن بنى هاشم، مع تحليهم بشروطها واستحقاقهم لها. هو أنه لما مات رسول الله كان عامله على مكة عتاب ابن أسيد الأموى، وأقرّه أبو بكر، وكان على صنعاء خالد بن سعيد بن العاص الأموى، وعلى البحرين أبان بن سعيد بن العاص الأموى، أو كان على البحرين العلاء بن الحضرمى، وهو حليفهم، وعلى تيماء وخيبر وتبوك، وفدك عمرو بن سعيد بن العاص الأموى، وعلى نجران أبو سفيان صخر بن حرب الأموى، وقيل: كان عليها أنصارى،

وقيل: إن ابنه يزيد كان ممن يجمع الصدقة، وكان على جرش حليف لبنى أمية من الأزد.

وقال عمر بن عبدالعزيز: لما مات النبى (ص) كان من عماله أربعة رجال من بنى أمية.

ثم ذكر المقريزى أن العمال على سائر النواحى كانوا من غير بنى هاشم قال: فإذا كان النبى (ص) قد أسس لهم الأساس، وأظهر بنى أمية للناس بتوليته لهم الأعمال، فكيف لا يقوى ظنهم، وينبسط رجاؤهم.

وكيف لا يقصر أمل بنى هاشم، وقد ذكر البخارى عن الزهرى أن العباس عم النبى وأكبر بنى هاشم سنًا، وعليًا أخا النبى يريد أحدهما أن يستعلم الآخر من النبى (ص) فى أيام مرضه هل الأمر فيهم أم فى غيرهم؟ فيأبى ذلك.

وذكر قول العباس لعلى: امدد يدك أبايعك، فيقال: عم رسول الله بايع ابن عم رسول الله، ويابيعك أهل بيتك، فإن مثل هذا الأمر لا يؤخر، وقول على للعباس: يرحمك الله ومن يطلب هذا الأمر غيرنا، أو معناه، هذا على اختلاف الروايات.

وسيأتى بيان ما اختلفوا فيه من إصابة أيهما وجه الرأى، وذكر أنها رويت مع ماذكره أحاديث كثيرة، إن كانت صحيحة فلا سبيل إلى ردّها، وإن كانت مفتعلة فقد كانت داعية إلى الأمر الذى وقع النزاع فيه.

وأتبعها ببعض أحاديث الفتن التى فيها ذكر ملك بنى أمية، وجبروتهم، وتخاذهم مال الله دولاً، وعباد الله خولاً، ورؤيا النبى (ص) بنى الحكم، أو بنى العاص ينزون على المنبر نزو القردة فلم ير (ص) مستجمعًا ضاحكًا حتى توفى، وما فى معنى ماذكر.

وأردفه بأن أبا بكر ولى عددًا من بنى أمية، وحلفائهم، وكذلك فعل عمر، ولم يوليا أحدًا من بنى هاشم.

والنتيجة أن هذا وما يشبهه هو الذى حدد أنياب بنى أمية، وفتح أبوابهم، وأترع كأسهم، وقتل أمرائهم، حتى لقد قام أبو سفيان بن حرب على قبر حمزة رضى الله عنه، فقال: رحمك الله أبا عمارة، لقد قاتلتنا على أمر صار إلينا.

وروى أن الأمر لما أفضى إلى عثمان بن عفان أتى أبو سفيان قبر حمزة فركله برجله، ثم قال: ياحمزة إن الأمر الذى تقاتلنا عليه بالأمس قد ملكناه اليوم، وكنا أحق به من تيم وعدى.

الثانى: ثم ذكر المقريزى اختصاص أهل البيت بالفضلواختيار الله لهم الآخرة، وقال: كان غير واحد من فضلاء الصحابة رضى الله عنهم يعلمون أن آل البيت أرفع قدرًا عند الله من أن يبتليهم بأعمال الدنيا، منهم عبدالله بن عمر رضى الله عنه وذكر ما روى أنه قاله للحسين: والله لا يليها أحد منكم، وما صرفها الله عنكم إلا للذى هو خير لكم.

وروى أن ابن عباس قال للحسين: ماكان الله ليجمع لكم بين النبوة والخلافة، قال: وهذا من فقههما.

وذكر اختيار رسول الله (ص) أن يكون عبدًا على أن يكون ملكًا.

وذكر زعم بعضهم أن السر فى خروج الخلافة من على إلى أبى بكر وعمر، لئلا يقال: ملك متوارث.

قال: وقد ظهر لى أن ولاية رسول الله (ص) بنى أمية الأعمال كانت إشارة منه (ص) إلى أن الأمر سيصير إليهم.

وذكر أن له فى مثل هذا التأويل سلفًا، وهو ابن المسيب فى تأويله جلوس النبى (ص) مع أبى بكر وعمر فى قف البئر فى جانب، وجلوس عثمان منفردًا مقابلهم بأن قبورهم تجتمع ثلاثة، وينفرد عثمان، ثم أطال بذكر تشبثات لا يثبت شىء منها على المحك.

كذكره أن صيرورة الخلافة إلى بنى العباس إنما كانت أيام ضعف الدين لعدم استحقاقهم الخلافة، وذكر طرفًا من فظائع جبابرتهم وفراعنة عمالهم عاملهم الله بعدله آمين.

وشرع بعد ذلك فى المقارنة بين ما كان فى الأمة الموسوية، وما صار مثله فى الأمة المحمدية حذو القذة بالقذة.

فذكر أنه خلف بعد موسى يوشع بن نون عليه السلام، وهو من سبط آخر، وبعده عن موسى كعبد أبى بكر عن النبى محمد (ص).

وخلف بعد يوشع جماعة مختلفة أنسابهم، كما قام بعد أبى بكر رجال مختلفة أنسابهم.

ثم أستقر أمر بنى إسرائيل فى بنى يهوذا عم موسى عليه السلام، وكذلك استقر أمر المسلمين فى بنى العباس عم النبى محمد (ص)، وذكر أموراً سلك فيها الآخرون سنن من قبلهم، إلى أن قال ما معناه: ولم يجتمع أمر بنى إسرائيلبعد زوال دولتهم على

واحد يقوم بدينهم، فكذلك المسلمون لم يتفقوا على خليفة واحد بعد بنى العباس، أى أولهم.

وبنوإسرائيل قطعهم الله فى الأرض أمما، وكذلك قريش تفرقوا وصاروا رعية.

وبنو إسرائيل جهلت أنسابهم إلا بعض بنى يهوذا، فإن نسبهم يتصل بداود عليه السلام، وكذلك قريش جهلت أنساب بطونها ماخلا بعض بنى حسن وحسين، فإن أنسابهم متصلة بعلى.

فانظر أعزك الله كيف شابه أمر هذه الأمة أمر الأمة اليهودية، مصداقاً لما أنذرها بها رسول الله (ص) فيما صح وثبت عنه، فكان ذلك من أعلام نبوته، كما بينته فى كتاب إمتاع الأسماع بما للرسول من الأبناء و الأحوال والحفدة والمتاع.

عن أبى سعيد قال: قال رسول الله (ص): (لتتبعن سنن الذين من قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع حتى لو دخلوا جحر ضب لتبعتموهم قلنا: يا رسول الله اليهود والنصارى؟ قال: فمن) أخرجاه فى مسلم والبخارى وله طرق.

الثالث: وقد انتهى ما أردنا استخلاصه من كلام المصنف رحمه الله ممزوجاً بما زدناه عليه مما يقويه، ويوضحه ووفاء بما وعدنا به من تبيين ما دخل على المصنف من وهم وغلط، نقول: إن جميع ما ذكره المصنف فى بنى أمية من بعدهم عن رسول الله وعن ولايته، وولاية المؤمنين، ومن إخراجه (ص) لهم من قرابته إقصاء لهم، وطرداً، ومن اتصافهم بعدواة الله ورسوله والإسلام وأهله، وبالإلحاد والزندقة، والنفاق والنذالة، والعهار والدياثة، والخيانة، ومن مجازاتهم بالإساءة كل من أحسن إليهم، ومن جبروتهم وظلمهم وعسفهم، وجشعهم وطمعهم، كل ذلك ثابت واقع لا شك فيه ولا مرية.

وكله مما يوجب على المسلمين إبعادهم وكبهم والاحتراس الشديد منهم، والحذر من سموم ضلالهم، وعدم الركون إليهم، وكله مما يوضح أن النزاع إنما كان بين الحق والباطل، والهدى والضلال، وما أحسن ما أتى به من المقارنة والتنظير بين ما وقع من الأمة اليهودية، وتبعهم فيه من تبعهم من الأمة المحمدية، حذو النعل، وما كان أحرى الأمة بتجنب تلك المهاوى بعد إنذار نبيها لها، وإرشاده لها إلى ما فيه ضمان هداها.

فإننا لا نشك فى ضلال اليهود، وفى أن الله غضب عليهم، لمخالفتهم أوامر ربهم، ولولا ذلك لما حذرنا نبينا (ص) من اتباع سننهم، وأنذرنا رحمة منه بنا وإتماماً للحجة علينا، ولذلك نقطع بضلال من نبذ التمسك بأهل بيت رسول الله واتبع سنن بنى إسرائيل.

ولا يلزم من كلامنا هذا الحكم بضلال جميع الأمة، كلا كيف لا،وقد صح عن النبى (ص) أن ربه اللطيف الخبير أنبأه ـ وله الحمد والمنة ـ أن أهل بيته، وكتاب الله لن يفترقا إلى ورود الحوض، فهم ومن تمسك بهم أهل الحق، وهم الفرقة الناجية، وهم الطائفة التى لا تزال على الحٍ لا يضرها من ناواها.

وبما تقرر مما ساق أكثره المصنف تتم الحجة فى فصل الحكم فيما فيه النزاع، ويمتاز أهل الحق من المتبعين سنن من قبلهم.

ومن العجائب إتيان المصنف به وعدم فهمه له مع وضوحه وظهوره، والسبب فى اشتباه الأمر عليه حتى كثر تحيره، ومذاكرته مشيخته طول عمره به ـ فيما نرى والله أعلم ـ هو إن شاء الله ما جرت به العادة غالباً من نشأة الإنسان على ما عليه أهل شارعه وبلده وقومه وإعظامه لمن يعظمونهم، واعتقاده أنهم أهل الحق، وأن مخالفتهم ضلال.

فينتحل التأويلات لكل ما يتراءى له من واضع خطائهم وأوهامهم، هكذا جرت

العادة، ولهذا كذبت الأمم رسلها، واستكبرت وكبر عليها أن يكون الخطأ حليف من ارتكز تعظيمه فى قلوبهم، وهذا حجاب عن معرفة الحق، قل من خرقة إلاّ من وفقه الله وأعانه.

إن المصنف ـ وأمثاله كثير ـ لما بهره سطوع نور الحق، وظهر له ضلال من ضل تحير، ولم يصدق عقله، ولم يقنع بقواطع الحجج، بل استرسل مع الأوهام، وذهب يغالط نفسه، ويحاول ستر شمس الحق بخيوط من نسيج العناكب متتبعاً للوساوس والخيالات الواهية.

وإذا تأمل الموفق المنصف صنيع كثير من العلماء فى أمثال هذه المواضيع مما تعصبوا له وجمدوا عليه، وأشربته قلوبهم، وارتضعوه مع اللبن، وربوا عليه يجدهم يتشبثون بأذيال الأوهام هيبة للإنفراد عن الجماهير، ونضالاً عن آراء كبار مقلديهم وإعظاماً لمقام سابقيهم، وتخوفاً من أن ينبزوا بألقاب مكروهة عند العامة، كالرفض مثلا، وحذراً من أن تعوى خلفهم كلاب الطواغيت من سفلة العلماء فيتعمدوا إطفاء نور الفرة، وإغماض عين البصيرة، وطمس معالم الهدى، وتخدير الضمائر بنحو قولهم: كذا قالوا، ولو لم يكن لهم مستند لما قالوا، وكقولهم: يسعنا ما وسعهم، وهم أعلم منا وأروع، وداعى الإنصاف يناديهم بلسان الحق المبين «**هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين**» [أين السورة].

والحق أن الذين هم أعلم وأروع هم من قال النبى (ص) فيهم (تعلموا منهم ولا تعلموهم فإنهم أعلم منكم) وهم الذين ضمن عدم الضلال للمتمسك بهم الذين من تقدمهم هلك، ومن تأخر عنهم هلك، ومن خالفهم ملك، وصار حزب إبليس.

الرابع: زعم المصنف رحمه الله تعالى أن الأمر اضتح له لنظره فى أمور هى أن

رسول الله (ص) لما توفاه الله تعالى كان رجال من بنى أمية وحلفائهم عمالاً له، ولم يكن أحد من قرابته (ص) إذ ذاك عاملاً.

وبنى المصنف على هذا قوله، فإذا كان رسول الله (ص) قد أسس لهم هذا الأساس، وأظهر بنى أمية لجميع الناس بتوليته لهم الأعمال. الخ.

فقد جعل المصنف تأسيس دولة بنى أمية مبنيًا على هذه الشبهة الواهية، مقويًا لها بما رواه البخارى عن الزهرى من إشارة العباس على على بسؤال النبى عن الخلافة. الخ.

مؤيدًا ذلك برواية البخارى أيضًا قول العباس لعلى: امدد يدك.. الخ وجواب على عليه.

داعمًا جميع دعاويه بأحاديث الفتن التى حذر النبى (ص) أمته فيها جبروت بنى أمية، واستبدادهم وطغيانهم لئلا يقعوا فيما وقع فيه من قبلهم من الأمم، وليعتصموا بحبل الله وعترة نبيه.

ثم اتبع ما أشرنا إليه بما صنعه أبو بكر وعمر من توليتها جلائل الأعمال رجال بنى أمية، وعدم توليتها أحدًا من أهل بيت رسول الله (ص)، وقد جعل ما ذكره ترشيحًا لبنى أمية، وتطريقًا لهم إلى الخلافة، وحملاً لهم على أعناق الأمة، وإقصاء لبنى هاشم، وإبعادًا لهم عن ما هم أحق خلق الله به، وسدًا لباب الخلافة عنهم .. الخ الخ.

والصواب إن شاء الله تعالى أنه قد كان ممن ولاه النبى (ص) جمع شياه الصدقة وبعرانها، وما أشبه ذلك رجال من بنى أمية يعدون على أصابع اليد على نحو ما نقله

المصنف عن عمر بن عبدالعزيز، وسنبين لك فيما سيأتى ماهو مقصود تلك الولاية من النبى (ص) - لا من غيره لاختلاف المعنى والصورة - وبه تعرف جليًا أنها مما لا قيمة له فيما تخيله المصنف.

وما قد يفهمه قول المصنف أنه لم يكن فى عمال النبى (ص) أحد من بنى هاشم من أن النبى (ص) لم يول أحدًا منهمخ ليس بمراد قطعًا، لأن النبى (ص) ولى عليًا النداء ببراءة بعد أن كان أعطاها أبا بكر، فأمر عليًا أن يأخذها منه وقال له: (لا يؤدى عنى إلا أنا أو أنت) رواه أحمد.

فأى ولاية تساوى ذرة من هذا الشرف، وما علينا من تمحلات من ديدنهم تصغير عظيم قدر أخى النبى (ص) وصنوه ﴿**حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ**﴾ البقرة: ١٠٩. فليذهبوا فى أودية الباطل حيث شاؤوا ومن الهزء قولهم: إن النبى (ص) إنما راعى فى ذلك عادة عرب الجاهلية، وقد أعمالهم الغرض عن أن النبى (ص) إنما بعث لهدم الجاهلية وعاداتها الخبيثة، وما أقره (ص) مما كانوا عليه فإنما هو من تراث إسماعيل (عليه السلام)، ولو كان هذا منه لما خفى على النبى (ص) وعلى أصحابه الكرام، وقد كان لواؤه الخاص فى المواطن بيد أخيه على وولاء على اليمن، كما ولاه إصلاح ما أفسده خالد بن الوليد، وتهدد من تلكأ عن الإسلام ببعثه عليهم خاصف النعل، وهو على، وقال: (هو عديل نفسى وولى كل مؤمن بعدى) وتواتر قوله فيه (من كنت مولاه فهذا مولاه) الحديث متواتر ولم يول عليه أحدًا طول حياته الشريفة، نفسى له الفداء إلى ما لا يحيط به الحصر من ومن ومن.

فيا عجباء لم ير المصنف جميع ما ذكرناه مع ما أحاط به علمه مما فى معناه ترشيحًا لعلى للخلافة مع توفر شروطها فيه، واتصافه بجميع ما اتصف به غيره من الصفات الجميلة الحسنة، وعدم اجتماع ما فيه منها فى أحد أبدًا.

وفهم واتضح له أن ما قيل من توليته لمن ولاه من بنى أمية لما سنذكره من الغرض لا أنها كانت ترشيحاً للخلافة.

فمن أغرب الغرائب وأبعدها عن العقول والفطر السليمة أن يفهم أحد أو يقول: اتضح لى أن الأمة إنما استسلمت إلى بنى أمية أعداء الله ورسوله وأعداء الإسلام، وولتهم، وأقصت أخا نبيها، وأصدق صديق له، وقتلت ذريته وشردتهم لما تخيله المصنف.

وقد ولت الأمة أبا بكر وعمر، ثم عثمان بدون ترشيح إذ لم يولهم النبى (ص) أعمالا تذكر، ولم تفهم الأمة أن فى ذلك إقصاء لهم عن الأمر، وأن عمال الزكوات وجباة الخراج أحق به منهم، وكذلك لم يحتج أحد بشىء مما بنى عليه المصنف العلالى والقصور يوم السقيفة، ولا يوم الشورى، ولم يتضح لأحد منهم ما اتضح له، ولكن الوهم قد يربو فيغمر العقل فتتجسم له الخيالات.

وقد مات رسول الله (ص) وأسامة أمير على أبى بكر وعمر وكثير من المهاجرين والأنصار، ورايته عليهم معقودة، فلم يفهم هو ولا غيره أن ذلك ترشيح له للخلافة، وهو هو.

أما السبب فى تولية النبى (ص) من ولاه من بنى أمية، ومن ضارعهم فيما يظهر لنا فهو أنهم كانوا من ألد أعداء المسلمين، وأشدهم نكاية فيهم فثارات المسلمين عندهم كثيرة، وحنقهم عليهم شديدة، وقد تقدم ذكر نموذج مما كانوا عليه، ثم كان إسلامهم عن قهر، وكره وغلبة، ولم تنزل تبدو منهم فلتات تدل على أنهم إنما أظهروا الإسلام وأسروا الكفر، فكان نفار المسلمين منهم عظيما، وكرههم لهم متأصلا، وتقززهم منهم مستمرا .

روى ابن عساكر عن سعيد بن عبد العزيز قال: قال عمر بن الخطاب لأبى سفيان

ابن حرب: لا أحبك أبدا، رب ليلة غممت فيها رسول الله (ص).

فهل ترى عمر يعتقد صحة إسلام أبى سفيان، ثم لا يحبه أبدا لذنب محاه الإسلام، حاشا ولكنه عرف نفاقه، وإصراره على ماكان عليه.

جاء فى الأخبار الصحيحة أن جماعة من أصحاب الصفة مرّ بهم أبو سفيان بن حرب بعد إسلامه فعضوا أيديهم عليه، وقالوا: واأسفاه كيف لم تأخذ السيوف مآخذها من عتق عدوّ الله، وكان معه أبو بكر، فقال لهم: أتقولون هذا لسيد البطحاء، فرفع قوله إلى رسول الله (ص) فأنكره، وقال لأبى بكر: انظر لا تكون أغضبتهم فتكون قد أغضبت ربك، فجاء أبو بكر إليهم وترضاهم، وسألهم أن يستغفروا له، فقالوا: غفر الله لك. رواه مسلم.

أترى رسول الله (ص) يقر ما قاله أهل الصفة لو كان أبو سفيان صحيح الإسلام حاشا وكلا، فأراد النبى (ص) من جهة تأليف قلوب أولئك الأعداء، ومداواة أودهم، ولددهم ومن جهة تخفيف نفرة المسلمين منهم، وتقريبهم إليهم، بتوليته لهم ولآهم عليه، ومن جهة ثالثة تفريقهم فى الأطراف لئلا يتألف منهم حزب ضلال وإضلال، ومن جهة رابعة إبعادهم عن المدينة لئلا يبقوا بها عيونًا وجواسيس للأعداء، ومأوى ومكمنًا لكل غادر خبيث، ولئلا يفسدوا قلوب من فى قلوبهم مرض، من ضعفاء اليقين **﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً﴾** التوبة: ٤٧.

وقد سبق ذكرنا لأن أكثر ما ولاه رسول الله (ص) أولئك الملموزين فى دينهم المدخول إسلامهم ولم تكن ولايات ذات خطر، سيما فى تلك الأعصار بل هى من جنس ما ولاه الخائن ابن التبيه، والفاسق بنص القرآن ابن أبى معيط من جمع أعنز وضأن أباعر بسيرة صدقة من الأعراب، أو جزية قليلة لو حولت إلى عملة زمننا هذا لما ساوت

ما يستلمه محصل متوسط، أو هى أشبه بإمامة كفر صغير، أو عرافة عريف كتيبة تغير على طرف من الأطراف، وتحل حين تعود، فلا يجوز أن يبنى عليه أكثر مما ذكرناه مهما بالغنا فيه.

الرسول وبنى هاشم: وأما عدم إكثار النبى (ص) من تولية بنى هاشم وأجلاء الصحابة، وتفريقهم فى الأطراف، فله أسباب، ولا يجوز أن يكون فى ذلك إقصاء لهم عن الخلافة، كما زعم المصنف اتضاح ذلك له، أو قطعًا لطمعهم فيها:

منها: أن بقاءهم بجوار رسول الله (ص) يحفظون ما ينزل من القرآن، ويتلقون ما تجدد من السنة ليبلغوا ذلك إلى الأمة أهم وأكثر نفعًا للأمة من تحصيل نعم الصدقة، ونحو ذلك.

ومنها: أن ذهاب أولئك الأقرباء والخواص إلى الأطراف يعرى به جانب رسول الله (ص) ويبقى بعدهم بين كثير من المنافقين الذين مردوا على النفاق من أهل الضغائن المتربصين بالإيمان وأهله الدوائر.

ومن عرف أنه قد فر جمهور الصحابة عن رسول الله (ص) ولم يثبت معه إلاّ نفر قليل فى بعض المواطن، ثم فى حنين ولوا عنه مدبرين، ولم تمنعهم بيعة الحديبية عن الفرار، ولم يثبت معه إلاّ أناس من أهل بيته فقط، كما ثبت فى شعر العباس وغيره، فهل يكون من الصواب تفريق المحبين المخلصين الناصحين المستميتين فى نصر الله ورسلوه فى السباسب والقفار وأطراف البلاد لجمع الزكوات، أو الجزية إن ذلك لبعيد عن الصواب.

وبهذا يظهر جليًا بطلان ما استنتجه المصنف رحمه الله، وبنى عليه ما بنى، وفيه

كفاية لمن يفهم، وينصف إن شاء الله تعالى.

وما ذكره المصنف رحمه الله تعالى من أحاديث الفتن وما فى معناها مما فيه نحو بنى مروان على المنبر الشريف نزو القردة، أو اتخاذهم مال الله دولاً وعباد الله خولاً لله، وقلبهم الدين ظهرًا لبطن.

فإن كان فى ذكر أنبياء بنى إسرائيل هلاك اليهود، وتحريب المسجد ترشيح وتأسيس لملك بخت نصر.

أو كان فى ذكر رسول الله (ص) بنى قنطوراء تمهيد لاستيلائهم على الأمة وإذلالها.

أو كان فى ذكره عليه وآله الصلاة والسلام المسيح الدجّال إغراء للأمة على الاستخذاء له، والتسليم إليه، ووضع زمامها بين يديه إن كان شىء مما ذكرناه كذلك.

فإن ما جاء من ذكر بنى أمية وعسفهم واستبدادهم وظلمهم وما صح من اتباع الأمة سنن من قبلها تمهيد لملك بنى أمية، واستداد كل جبار وظالم، وكون هذا من أكبر الباطل بين، فكذلك ما توهمه المصنف.

ومن الحق الذى لا شك فيه أن إخبار النبى (ص) بوقوع أمر يفيد أنه سيقع حتمًا بدون خلف، وفق ما أخبروا ولكن مجرد الخبر لا يفيد أن المخبر عنه حق أو باطل، نعم إن اقتران الإخبار بالغبطة بالمخبر به، والتحبيذ له، والمدح له، أو الأمر به، فذلك الأمر حق، والسعيد من وفق له.

وإن اقترن به ضد ما ذكر فهو ضلال والشقى من علق به.

وما ذكره المصنف رحمه الله تعالى من تولية أبى بكر رجالاً من بنى أمية أعمالاً فيمكن حمل شىء منها على ما تقدم بيانه فى تولية رسول الله (ص) لمن ولاه من المغموصين، ويجوز أن يكون لشىء منها مغزى سياسى، وتولية عمر يتراءى أن جانب السياسة فى بعضها أظهر والله أعلم.

وأما عدم توليتها أهل بيت رسول الله (ص) الأعمال فلا أعلم له معنى دينيًا، وفوق كل ذى علم عليم.

وما رواه عن ابن عمر أنه قال للحسين بن على: والله لا يليها أحد منكم. الخ، إن صح فهو غلط واضح، ومثله ما روى عن ابن عباس فى هذا المعنى، ويقرب كل القرب أن ذلك كذب موضوع، لأنه يبعد أن ينسى ترجمان القرآن قوله تعالى: ﴿**فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيماً**﴾ النساء: ٥٤.

ولقد كان نبياً محمد (ص) مع كونه نبياً عبداً خالصاً ـ يحكم بين الناس بما أنزل الله، ويجبى الأموال ويقسمها كما أمر الله، ويقود الجيوش محارباً وغازياً لمن حاد الله، ولو كان لما زعموه عن ابن عمر وابن عباس أصل لما كان نبيا (ص) إلا كبعض أنبياء بنى إسرائيل الذين اقتصروا على إرشاد ملوكهم، ونصحهم، وليس لهم من الأمر شيىء، وهيهات هيهات.

ولقد كان على عليه السلام صنو النبى (ص) وأخوه مع كونه أفضل من غيره قد لابس ما لابس من أمور الخلافة، ولم يك ذلك لهوانه على الله تعالى حاشا وكلا، وهكذا الأمام المنتظر عليه السلام، ولكنها الغفلة واستشعار عظمة من نسب إليه القول تحمل

المرء على قبول الكلام المتهافت الباطل.

وما ذيل به المصنف ما نقله عن ابن عمر وابن عباس، وهو لفظ:(وذلك من فقههما) كلمة فيها جفاء شديد، وهل يظن عالم عاقل مصنف أن الحسين ابن رسول الله، الذى خرج فى سبيل الله مؤدياً للواجب العينى عليه، قليل الفقه فيما استشهد فى سبيله حاشا وكلا.

ولعل المصنف وجد تلك الكلمة العوراء فيما نقل عنه من الكتب، فكتبها غافلا عن مدلولها، كما فهم من خطبة الحسن بعد الصلح خلاف ما تدل عليه، ومثله فهمه من على الصدقات الإشارة إلى الإمامة العظمى، وكل ذلك خطأ باطل كما تقدم بيانه.

وما ذكره من أن سر خروج الخلافة عن أهل البيت هو لئلا يقال: ملك متوارث، وما فى معنى ذلك فهو مما لا قيمة له، لأن الخلافة مقام ومنصب دينى، ولن يتم ويحصل منه الغرض إلا إذا قام به أخص الناس بالدين، وأولاهم بالمسلمين.

ولو كان لمثل تلك الترخصات والتفوهات حكم لما أوجب الله الصلاة على النبى وآل بيته (ص)، ولما جعل لهم الخمس، ولما افترض على الأمة حبهم فالجواب عن هذه الأمور هو الجواب عن الخلافة.

ومن المضحكات قوله: إن الخلافة صارت إلى بنى العباس لضعف الدين لعدم استحقاقهم لأنه يفيد أن الضعف فى الدين إنما حصل حينئذ مع أنه لم يزل وما كان سبب حصولها لنبى أمية شرا مما هو سبب حصولها لنبى العباس بل هذا ابن ذاك، والشر لا ينبت إلا شراً، فالضعف قديم، والماء صرف من الأعالى والداء مزمن جداً.

وما نقله المصنف عن البخارى عن الزهرى من إشارة العباس على على فى أيام مرض النبى (ص) بأن يسأله عن خليفته، واباء على ذلك فغير صحيح عندنا لمعارضته لما هو أقوى منه مما لا تحوم التهم ولا الشكوك حوله مما يقوله على، ويكرره علانية، فى خطبه وكلامه، ومجموعه يوجب القطع بصدوره منه.

وهذا المصنف نفسه قد نقل عن البخارى وغيره عن الزهرى وغيره قول على للعباس فى محاورتهما فى أمر الخلافة: وه يطمع فيها غيرنا، أو ما معناه هذا على اختلاف الروايات، وليس بين صدور المقالة الأولى، وبين صدور الثانية، إلا ساعات غير كثيرة لو صح قولهم، ومن ذلك يظهر جلياً للمتأمل المنصف أن بعض تلك الروايات كذب مخترع، وكذلك كل ما فى معناها، فإنما أحدثته السياسة، وصححته القوة، وروجه سماسرتها من متاجرى علماء السوء، وسهل ذلك الإرسال والتجويد بطى أسماء رجال بعض سلسلة الإسناد إذا كانوا من طبقة واحدة فى المعاصرة، وكل هذا كان فى تلك الأيام مشهورًا.

والزهرى من أكبر رواة الصحيح، وقد كان من صنائع بنى مروان، وعمالهم، بل هو من المنقطعين إليهم، ومن التقربين إلى أهل الدنيا فلا غرو إن روى ما يروج به أمرهم تزلفاً إليهم، أو دفعاً لشرورهم عنه، أو إبعاداً لشكوكهم فيه.

جاء فى الكشاف فى تفسير قوله تعالى: ﴿**وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ**﴾ هود: ١١٣، قال: قال الحسن رحمه الله: جعل الله الدين بين لاءين﴿**ولا تطغوا.. ولا تركنوا**﴾.

ولما خالط الزهرى السلاطين كتب له أخ فى الدين: عافانا الله وإياك أبا بكر من الفتن، فقد أصبحت بحال ينبغى لمن عرفك أن يدعوا لك الله، ويرحمك، أصبحت شيخاً

كبيرًا قد أثقلت نعم الله بما فهمك من كتابه، وعلمك من سنة نبيه، وليس كذلك أخذ الله الميثاق على العلماء(١).

قال الله سبحانه: «**لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلا تَكْتُمُونَهُ**» [آل عمران: ١٨٧] واعلم أن أيسر ما ارتكبت، وأخف ما احتملت أنك آنست وحشة الظالم، وسهلت سبيل الغى بدنوك ممن لم يؤد حقًا، ولم يترك باطلاً حين أدناك، اتخذوك قطبًا تدور عليك رحا باطلهم، وجسرًا يعبرون عليك إلى بلائهم، وسلمًا يصعدون فيك إلى ظلالهم، ويدخلون بك الشك على العلماء، ويقتادون بك قلوب الجهال، إلى آخر ما قال. انتهى.

قال المحدثون: إن السند ولو كان كالشمس وضوحًا لا يفيد صحة المتن المنكر.

قال الحافظ بن عبدالبر فى الاتيعاب عند ذكره أحاديث مما رواه البخارى وغيره، وصححها غير واحد، قال: لا تصح لعدم صحة المعنى، أى ولا عبرة حينئذ بصحة السند.

ونقل ابن السبكى فى الطبقات أن محمد بن حنبل أوصى أن يضرب على حديث أبى هريرة الذى فيه الإشارة إلى أمر الناس باعتزال قريش، مع أن رجاله ثقاة، وما ذاك إلاّ لمخالفته المشهور من الأحاديث.

قال السيد محمد رشيد رضا: إننى أعلم أنه ليس كل ماصحح بعض المحدثين سنده يكون صحيحًا فى نفسه، أو متفقًا على تعديل رجاله، فكأين من رواية صحح بعضهم سندها، وقال بعضهم بوضعها لعلة فى متنها، أو سندها، والجرح مقدم على ---

---

(١) انظر تاريخ الزهرى فى تذكرة الحفاظ للذهبى وكتب الرجال. وانظر كتب التاريخ فترة عبدالملك بن مروان.

التعديل، بشرطه، وقد ذكروا من علامات الوضع ما ردوا به بعض الروايات الصحيحة الإسناد. انتهى.

وفى كتابنا العتب الجميل فى هذا المعنى ما يفيد المستفيد فليراجع ذلك من أحب(٢).

وما ذكره المصنف من قول العباس لعلى -عليه السلام-: امدد يدك أبايعك، وامتناع على عليه السلام- فقد اختلف فى أيهما كان رأيه الصواب، والذى يظهر لنا أن كليهما مصيبًا من الجهة التى اعتمدها، ولكن عليًا - عليه السلام- كان أتم إصابة، وأبعد نظرًا، وأحكم رأيًا، فإن العباس بنى رأيه على حسن ظنه بالأمة، التى لم تر الخير إلاّ بواسطة رسول اللّه (ص) فلم يجوز منها أن تعرض عن أهل بيت نبيها، سيما صنوه وأخيه، وأفضل من تركه بعده، وأكبر مجاهد بين يديه.

وعلى اخترق نظره الحجب فعرف جلية الأمر، وحقيقته، إما بفراسة صادقة، أو بأخبار أحيه له بذلك عن ربه جلّ جلاله، فعلم ما تكنه شجف الغيوب، وضمائر القلوب، فحفظ بماصنعه الإسلام عن الزوال جزاء اللّه عن دينه وعن نبيه وعن المسلمين خير الجزاء، وما كان فعله ذلك أول خدمة ضحى فيها بكل نفيس غال.

وما رواه المصنف من قيام أبى سفيان على قبر حمزة وخطابه له، وقد تقدم نقله فالرواية الأولى لعلها كانت بالمعنى، تلطيفا للشناعة.

والرواية الثانية هى الصواب إن شاء الله تعالى، وفيها أنه ركل قبر حمزة برجله اقتداء بإبليس فى ركله جسد آدم عليه السلام.

---

(٢) تم طبع الكتاب بالقاهرة وقد قمنا بالتعليق عليه.

ونرى أن أبا سفيان أراد بمخاطبته حمزة بقوله: إن الأمر الذى كنت تقاتلنا عليه بالأمس قد ملكناه اليوم مقابلة خطاب رسول الله (ص) لأصحاب قليب بدر بقوله: «**فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ**» [الأعراف: ٤٤] وهذا غير كبير ممن وقف على حمزة هذا مقتولا ممثلا به، وقد أكلت زوجته هند كبده، وقطعت آرابه، ومذاكيره فجعلتها حليا لها فضرب بزج رمحه شدق حمزة، وقال: ذق عقق، ذق عقق، ومن القائل لعثمان بن عفان فيما رواه الحافظ بنعبد البر حين استخلف على الناس عثمان: أدرها كالكرة، واجعل أوتادها بنى أمية، فإنما هو الملك، ولا أدى ما جنة، ولا نار.

وقد تقدم نقل المصنف لهذا المقالة.

وقد انتهينا من كتابة ما رأينا فى بيانه إفادة، وبقيت فى زوايا كلام المصنف كلام المصنف رحمه الله بقية لا حاجة بنا للكلام عليها مما أطال به فمنها ما هو بديهى البطلان متهافت، ومنها ما للكلام عليه محل آخر، ومنها ما هو صواب، وصحيح ثابت، وهو الموافق لما حققناه.

وتم تسويد هذه الوريقات مع استعجال، فالحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله فما كان حقا وصوابا فمن الله وحده، وله الحمد والمنة وما كان باطلا وخطأفمنى ومن الشيطان، واستغفر الله للعمد و الخطأ سبحان ربك رب العزة عما يصفون، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين، وكان الفراغ من تسويدها ظهر يوم الثلاثاء لثمان خلت من شهر صفر عام ١٣٣٧هـ وتم تبييضه ضحى يوم الأثنين لثلاث بقين من شهر رجب عام ١٣٤٢هـ فى سنغافورا والحمد لله أولا وآخرا، وصلاته وسلامه على محمد وآله، ومن تبعهم بإحسان، وكتبه بيده العبد محمد ابن عقيل بن يحيى عفا الله عنهم آمين.